الكتاب: سياسة الأنبياء
المؤلف: السيد نذير يحيى الحسيني
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: من مصادر العقائد عند الشيعة الإمامية
تحقيق:
الطبعة:
سنة الطبع:
المطبعة:
الناشر:
ردمك:
ملاحظات:

سياسة الأنبياء
دروس وعبر
دراسة لطرق المواجهة وأساليب المقابلة
بين الإصلاح والانحراف
تأليف
السيد
نذير يحيى الحسني

سياسة الأنبياء دروس وعبر...
بسم الله الرحمن الرحيم
المقدمة
يعيش المسلمون في هذه الأيام حالة من التخلف على الأصعدة المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والسر في ذلك هو الابتعاد عن الخطوات التي رسمها المسلمون الأوائل للبشرية وهم الأنبياء الذين رسموا لنا الخطوط الواضحة في التعامل، فاكتشاف خطوات التحرك لدى الأنبياء داخل المجتمع والاستفادة من ذلك هو السر الذي دعاني إلى سبر قصصهم وتحديد خطواتهم وكيفية تعاملهم مع أنفسهم أولا ومع المجتمع ثانيا ومع أعدائهم ثالثا، ولا ريب أن اكتشاف ذلك لا يخلو من صعوبات كثيرة أهمها نقص المصادر اللازمة لذلك والخالية من الأساطير والترهات الإسرائيلية كي تكون صافية واضحة لا يداخلها قدر من الشك بحيث يمكن الاعتماد عليها في تحقيق الهدف المشهود من هذه الدراسة ألا وهو تحديد طرق ووسائل الأنبياء (عليهم السلام) في نشر دعواتهم داخل المجتمعات وجعل ذلك قاعدة أساسية
ننطلق منها إلى الناس، فكان البحث على ثلاث فصول، اشتمل الفصل الأول على خطوات أولية للبحث تكون مفتاح الدراسة بحيث تم فيه المعرفة اللغوية والاصطلاحية للنبي وعصمته من الزلل والخطأ وأنواع السياسيات والفرق بينها واحتوى الفصل الثاني على البيان والتفصيل للطرق والوسائل التي تعامل بها الأنبياء (عليهم السلام) ابتداءا من نوح (عليه السلام) لأنه " أول نبي من الأنبياء (عليهم السلام) فتح باب الإحتجاج في
الدعوة إلى الله " (١) ومرورا بهود - وصالح - وإبراهيم - ولوط - ويوسف - وشعيب - وموسى - وعيسى - وانتهاءا بخاتمهم محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين وصحبه وآله المنتجبين، عشنا في هذا الفصل مع الأنبياء (عليهم السلام) وهم ينفتحون على الناس بدعواتهم الحقة، وتأملنا في الطرق التي اتبعوها مع الشعوب التي واجهتهم بالعنف والقوة، وسجلنا تلك الدروس التي مضى عليها زمن طويل ولم تزل غضة طرية بفضل خلود القرآن الكريم، فلا بد أن نستفيد ونتزود من هذه الدروس للوصول إلى الطريق الأمثل على مختلف المستويات السياسية

---

(١) الميزان ج ٦: ٢٩٥.

والاقتصادية والاجتماعية، وبما يضمن سعادة الدارين.
وأما الفصل الثالث عطفنا القلم فيه إلى بحث روائي اعتمدنا فيه أحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام) حول مستقبل الرسالة بعد غياب رسولها، فكما كان الأوصياء
خلفاء الرسل ومتممين لرسالاتهم كان بحثنا الأخير (مستقبل الرسالة) بحثا متمما للفصل الثاني الذي عشنا فيه مع الأنبياء وهم بين ظهراني الأمم.
وبحمد الله حققت هذه الدراسة ما قصدناه من استخراج الدروس والعبر وتحديد الطرق والوسائل التي تعامل بها الأنبياء في كل مراحل الدعوة إلى الله، وانتهلنا من المنبع الصافي ومن حياة أولئك الذين نقلوا للأرض تعاليم السماء فهذه الدراسة هي بذرة أتمنى أن تسقى بالتوجيهات والتوصيات من الأخوة القراء لتستكمل فروعها وتحمر أورادها، وأتمنى أن يتجه كل من يبحث عن الطريق الأمثل والأسلوب الأصح في الحياة إلى الأنبياء (عليهم السلام) وسياستهم وطرقهم في التعامل مع الناس.
ولا يفوتنا التنويه إلى أن مصادر هذه الدراسة لم تقف على نوع واحد بل كانت متنوعة شملت التفسيرية منها واللغوية والسياسية وبعض الكتب المعاصرة التي تحاول رسم المناهج الصحيحة في الحياة وغيرها من المصادر التي اعتمدت عليها.
وأخيرا أقدم شكري الجزيل إلى كل المكتبات التي قدمت لي العون في ذلك وإلى الأساتذة الكرام الذين لم يبخلوا علينا بتوصياتهم وإلى إدارة البحوث التي فسحت لنا المجال في المشاركة ومن الله نستمد العون أولا وأخيرا.
٢٣ / جمادى الآخرة / ١٤١٨

الفصل الأول
خطوات أولية للبحث

النبي لغة واصطلاحا
يقول الشيخ الطوسي " النبي في اللغة يحتمل أمرين
الأول: – المخبر واشتقاقه من الأنباء الذي هو الأخبار ويكون على هذا مهموزا.
الثاني: – أن يكون مفيدا للرفعة وعلو المنزلة واشتقاقه يكون من النباوة التي هي الارتفاع.
ومتى أريد بهذا اللفظ علو المنزلة فلا يجوز إلا بالتشديد بلا همز وعلى هذا يحتمل ما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله) " لا تبروا باسمي " أي لا تهمزوه لأنه أراد علو المنزلة.
ولا يلزم أن يكون كل عال المنزلة نبيا ثم يقول الشيخ النبي في العرف هو المؤدي عن الله تعالى بلا واسطة من البشر (١).
وجاء في لسان العرب: – أن النبي هو المخبر عن الله تعالى عز وجل لأنه أنبأ عنه (٢).
وفي النهاية: – من النبأ الخبر لأنه أنبأ عن الله تعالى أي أخبر.
أما النبي اصطلاحا يقول صاحب الميزان: –
" النبي هو الذي يبني للناس صلاح معاشهم ومعادهم من أصول الدين وفروعه على ما اقتضته عناية الله تعالى من هداية الناس إلى سعادتهم (٣).
فالنبي هو الذي يقود الناس نحو الله في كل أمورهم ومعاشهم وعباداتهم، وبحثنا خاص بهؤلاء الذين أشعلوا الشموع في طريق الإنسانية جمعاء لكي تستنير بهداهم وتسير بخطاهم نحو الله تعالى نحو اليوم الموعود.
" يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم " (٤).
* * *

---

(١) الإقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد، شيخ الطائفة الفقيه الأكبر أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي.
(٢) لسان العرب ج ١ ص ١٦٣.
(٣) الميزان ج ٢ ص ١٤٠.
(٤) الشعراء ٨٨ – ٨٩.

كم نبي في التاريخ
لو تصفحنا كتاب الله العزيز الذي هو المصدر الوحيد الموثوق فيه بهذا المجال نجده لم يذكر الأنبياء ذكرا شاملا قاطعا ولكن يذكرهم تارة بأسمائهم وأخرى بصفاتهم.
فالذين ذكرهم بأسمائهم بضعة وعشرون نبيا وهم آدم - نوح - إدريس - هود - صالح - إبراهيم - لوط - إسماعيل - اليسع - ذو الكفل - إلياس - يونس - إسحاق - يعقوب - يوسف - شعيب - موسى - هارون - داود - سليمان - أيوب - زكريا - يحيى - إسماعيل صادق الوعد - عيسى - محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.
وأما الذين لم يذكرهم القرآن بأسمائهم بل ذكرهم بالتوصيف والكناية حيث قال تعالى.
* (آلم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا) * (١).
وقال تعالى * (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها) * (٢)
وقال تعالى * (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث) * (٣)
وقال تعالى * (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) * (٤).
فالقرآن الكريم ذكر للأنبياء سلام الله عليهم صفات منها: -
الأول: - ذكر اسمه وحدد مهماته وبعض أساليب مواجهته مع الأعداء ففي قصة موسى قال تعالى * (إذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو

---

(١) البقرة: ٢٤٦.
(٢) البقرة: ٢٥٩.
(٣) يس: ١٤.
(٤) الكهف: ٦٥.

يخشى) * (١) فهنا ذكر لموسى عليه السلام العدو وحدد له وسيلة المواجهة الأولية * (فقولا له قولا لينا) *.
الثاني: - ذكرهم القرآن بصفاتهم * (فوجد عبدا من عبادنا) * حيث عبر عنه بصفة العبودية.
أما ما ذكرته الروايات عن عدد الأنبياء فهي كالآتي (٢).
١ - عن أبي ذر قال: يا رسول الله كم النبيون؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي، قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاثة عشر جماء غفيراء، قلت: من كان أول الأنبياء؟ قال: آدم.
٢ - خلق الله عز وجل مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألف نبي أنا أكرمهم على الله ولا فخر، وخلق الله عز وجل مائة ألف وصي وأربعة وعشرون ألف وصي فعلي أكرمهم على الله وأفضلهم.
٣ - عن أبي إمامة قال: قلت: يا رسول الله كم عدة الأنبياء؟ " فقال: صلى الله عليه وآله ": مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا.
فالروايات آحاد متونها مختلفة ولكن أشهرها كما يقول صاحب ميزان الحكمة رواية أبي ذر عن النبي (صلى الله عليه وآله) أن الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي والمرسلون منهم
ثلاثمائة عشر نبيا.
أولوا العزم
* (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) * (٣)
معنى العزم كما يقول صاحب الميزان (٤) " هو الثبات على العهد الأول المأخوذ منهم وعدم نسيانه قال تعالى: -
* (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن

---

(١)
(٢) ميزان الحكمة ح ٩ حرف النون ص ٣٣٧ محمدي الري شهري.
(٣) الأحقاف: ٣٥.
(٤) الميزان: ج ٢ ص ١٤١.

مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) * (١).
فالأنبياء سلام الله عليهم كما كانوا أنبياء ورسل كذلك كانوا أولي العزم وغيرهم وهذا التقسيم جاءت به آيات الله وروايات أهل البيت سلام الله عليهم فالحديث فيها يقول " أولوا العزم من الرسل خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين " (٢).
والحديث الآخر يقول عن سماعة بن مهران قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) قول الله
٥ / ٤٦ عز وجل: * (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) * فقال: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (صلى الله عليه وآله)، قلت: كيف صاروا أولي العزم؟ قال: لأن نوحا بعث
بكتاب وشريعة، وكل من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهاجه، حتى جاء إبراهيم (عليه السلام) بالصحف وبعزيمة ترك كتاب نوح لا كفرا به..... الخبر (٣).
فسبب تسميتهم أولوا العزم لأنهم كانوا أصحاب عزائم وشرائع فكل نبي يأتي بعد نبي من أنبياء أولي العزم يسير على منهاجه وشريعته حتى يأتي أولي عزم آخر، فأولوا العزم خمسة وهم أفضل الأنبياء والرسل سلام الله عليهم أجمعين (٤).
* * *

---

(١) الأحزاب: ٧.
(٢) البحار: ج ١١ عن ميزان الحكمة ص ٣٣٩.
(٣) أصول الكافي: ج ٢، ص ١٧ عن ميزان الحكمة ص ٣٤٠.
(٤) البحار: ج ١١ ص ٣٤ عن ميزان الحكمة ص ٣٤٠.

عصمة الأنبياء
دلت الأدلة العقلية والنقلية على أن الأنبياء سلام الله عليهم معصومون من كل خطأ أو زلل صغيرا كان أو كبيرا وفي هذا البحث لا نريد أن نسوق الأدلة العقلية والنقلية بشكل مفصل وإنما يطلب ذلك في مضانه من الكتب العقائدية بل نريد هنا أن نذكر دليل واحد عقلي وآخر نقلي يكفي في هذا المجال ويغني القارئ عن ذكر الأدلة جميعها فنقول.
الدليل العقلي على عصمة الأنبياء
الغرض الأساسي من بعثة الأنبياء هو الالتزام بما يبلغون به من أحكام، والالتزام بالتبليغ يحتاج إلى تصديق أقوال المبلغ والثقة بها والاطمئنان بما يصدر منه من قول فإذا فقد النبي هذه الصفة من قبل الناس فلا يمكن أن يحقق الغرض الأساسي من بعثته، فتجويز الكذب على النبي يعني عدم الالتزام بما يقول فلا وثوق بقوله وبالتالي لا يصل إلى الغرض الأساسي من بعثته فلا بد أن يكون معصوما عن الخطأ والزلل حتى يحصل الوثوق به والتصديق بكلامه يقول المحقق الطوسي في التجريد : -
" ويجب في النبي العصمة ليحصل الوثوق فيحصل الغرض " (١).
الدليل النقلي على عصمة الأنبياء
يقول تعالى في كتابه العزيز
* (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) * (٢).
إلى

---

(١) كشف المراد ص ٢١٧ طبعة صيدا عن الإلهيات جعفر السبحاني ص ١٦٧ ج ٣.
(٢) سور النساء: ٦٩.

تدل هذه الآية المباركة على أن الأنبياء سلام الله عليهم أنعم الله عليهم وبضمها آية أخرى من كتابه العزيز وهي قوله تعالى * (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الظالين) * (١) فينتج من ضم هاتين الآيتين عصمة الأنبياء من كل الذنوب والمعاصي صغائرا وكبائرا لأن الآية الثانية تقول إن الذين أنعم الله عليهم أولا: - غير مغضوب عليهم من قبل الله تعالى.

وثانيا: - لم يكونوا ضالين ومن المعلوم أن كلمة الضال تطلق حتى على الذين يعذرون في بعض المواقف فمثلا عندما يريد الإنسان أن يصل إلى مكان معين ويضل الطريق فهو غير قاصد إلى هذا الضلال ولكن مع هذا يطلق عليه ضل الطريق ، فالأنبياء سلام الله عليهم غير مغضوب عليهم وليسوا بضالين لأن الله أنعم عليهم وهداهم إلى صراط مستقيم فهم معصومون من الغلط والسهو.

ويمكن إفراغ هذا الدليل بقالب منطقي كما فعله الأستاذ جعفر سبحاني حيث قال (٢).

١ - أن الأنبياء قد أنعم الله عليهم

٢ - وكل من أنعم الله عليه فهو غير مغضوب عليه ولا ضال

٣ - فينتج: أن الأنبياء غير مغضوب عليهم ولا ضالين.

فهم غير مغضوب عليهم لأن لا يرتكبون صغيرة ولا يضلون لأن الله أنعم عليهم وهداهم إلى صراطه المستقيم.

امتحان الله لأنبيائه

تارة أنك تجهل حال الشئ وأخرى إنك تعلم بحال الشئ ولكن تريد أن تظهره فالأول ممتنع على الله تعالى لأن الله تعالى عالم بكل شئ لا يجهل الأشياء وهو خالقها أما الثاني أن الله يعلم حال الشئ ظاهرا وباطنا ولكن يبلوه ويمتحنه ليظهره ويبينه أنه من أهل الثواب أم من أهل العقاب فهذا معنى الامتحان الذي يمتحنه الله

---

(١) سورة الحمد: ٧.

(٢) الإلهيات - جعفر السبحاني ص ١٨٠ ج ٣.

تعالى عباده.
والامتحان: - سنة إلهية جرت على العباد ليعلم الصادق من الكاذب لأن آثار الصدق والكذب تظهر بالبلاء والامتحان قال عز من قال: -
* (وقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) * (١) فالامتحان وسيلة للتميز والفرز ووسيلة للجزاء من الثواب والعقاب حيث قال تعالى : -
* (ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم وأولئك هم المهتدون) * (٢) فهذا هو الامتحان الذي يجب على كل إنسان أن ينجح فيه لأن للنفوس ثمن وهو الجنة ولا جنة بدون اختبار وامتحان.
وإذا لاحظنا أنبياء الله تعالى سلام الله عليهم في كيفية التعامل مع البلاء والامتحان الإلهي نجدهم يتعاملون بروح إيمانية عالية وبنفوس طاهرة زاكية، فهذا نبي الله إبراهيم سلام الله عليه خضع لامتحانات إلهية متعددة يتحير الكاتب في أيها يبدأ ولكن نذكر منها مثالا دال على صلابة إبراهيم سلام الله عليه اتجاه البلايا والمحن فها هو يحمل هاجر زوجته وإسماعيل ولده الصغير إلى واد غير ذي زرع فاسكنهم بذلك الوادي الموحش وعاد إلى زوجته سارة عاد وقلبه مطمئن بالمعية الإلهية لعائلته الشريفة ونجح في هذا البلاء القلبي العظيم حيث توجه إلى ربه بدعاء نابع من صميم القلب المبتلي حيث قال: -
* (ربنا أني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) * (٣) فاستجاب الله تعالى دعاء العبد الصالح وجعل مكان إسماعيل مهوى القلوب على مر العصور، والامتحان الآخر لهذا النبي العظيم هو الامتثال للرؤيا التي رآها * (يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يأبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) * (٤) وبالفعل عندما أراد أن يطبق الرؤيا على أرض الواقع جاء هو وابنه سلام الله عليهم وهم قطع إيمان تتحرك لتنجز الاختبار والامتحان الإلهي * (فلما أسلما وتله للجبين) * (٥) فكان قاب قوسين أو أدنى
من تحقيق الرؤيا وذبح ولده الذي استجاب لرؤية أباه بقلب مطمئن * (إفعل ما تؤمر

---

(١) العنكبوت: ٣.
(٢) البقرة: ١٥٥.
(٣) إبراهيم: ٣٧.

(٤) الصافات: ١٠٢.
(٥) الصافات: ١٠٣.

ستجدني إن شاء الله من الصابرين) * (١) عندها جاء الحل الإلهي المناسب وفي اللحظة المناسبة ليقرر لإبراهيم سلام الله عليه صبره وبلاءه ونجاحه في هذا الاختبار العظيم * (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) * (٢) جاء النداء الإلهي المناسب ليقل لإبراهيم سلام الله عليه قد أفلحت في عملك هذا وتسليمك الكامل لله تعالى ونحن سنجزيك جزاء الصابرين على البلاء العظيم فبشره الله بالخيرات واستمرت حياة نبينا إبراهيم مع الله وفي الله وعند الله في كل عمل يعمله ورؤيا يراها.

أما نبي الله يونس سلام الله عليه امتحنه الله تعالى امتحان من طراز آخر وهو بطن الحوت وظلمات البحر حيث قال تعالى * (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) * (٣) فهذه الظلمات الثلاثة - ظلمة البحر - ظلمة بطن الحوت - وظلمة الليل (٤) التي وضع فيها يونس سلام الله عليه ليمتحنه بهذا البلاء العظيم ولكن يونس (عليه السلام) نجح في الاختبار واستطاع أن يتجاوز كل هذه الظلمات بهذه الكلمات الثلاثة -

لا إله إلا أنت - سبحانك - إني كنت من الظالمين فكبر الله أولا ووحده ثم سبحه حتى وصل إلى نفسه فوجه إليها اللوم فهناك طرفان في المعادلة..

الطرف الأول: - الله تعالى

الطرف الثاني: - يونس سلام الله عليه.

فتعامل يونس مع الله تعالى معاملة التنزيه والإجلال والإكبار والتوحيد والتسبيح أما مع نفسه تعامل معاملة المقصر المذنب فنجح في الاختبار وخرج من بطن الحوت وأرسله الله ثانيا إلى قومه.

وأما نبي الله أيوب عليه السلام حيث قال عنه تعالى

* (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب، أركض

---

(١) الصافات: ١٠٢.

(٢) الصافات: ١١٣.

(٣) الأنبياء: ٨٧.

(٤) الميزان: ج ١٤ ص ٣١٥.

برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) * (١).
فلقد مر أيوب عليه السلام ببلاء " صورته لنا روايات أهل البيت سلام الله عليهم " عظيم في بدنه وأهله وماله حتى أخرجوه أهل القرية من قريتهم لضعفه في الظاهر ولكن هذا العبد الصالح صبر على هذا الامتحان العسير بدعاء ملي بالآلام والمحن * (وأيوب إذ نادى ربه إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) * (٢) فأجابه الله تعالى جوابا عاد لأيوب كل ما فقد وأكثر من ذلك * (فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) * (٣).
وما هذا الذي ذكرناه إلا فتات من البلاء العظيم الذي واجهه الأنبياء سلام الله عليهم واجهوه بالصبر وانتظار الفرج الإلهي القريب وحلاوة الدعاء هي الاستجابة،
فاستجاب الله لأدعية الأنبياء سلام الله عليهم وفاءا منه تعالى لوعده الذي قطعه على نفسه في كتابه العزيز.
* (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) * (٤).
وأما حبيب الله محمد صلوات الله عليه وعلى آله امتحنه الله تعالى بما لاقاه من الناس في مواجهة دعوته حيث يقول " ما أوذي أحد مثل ما أوذيت في الله " (٥) فهذا الحديث يحمل بين طياته مرارة الآلام والمآسي التي تحملها رسول الله (صلى الله عليه وآله) من
قومه وفي حديث آخر عن طارق المحاربي قال: -
" رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) بسوق ذي المجاز فمر وعليه جبة له حمراء وهو ينادي
بأعلى صوته: يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا " ورجل يتبعه بالحجارة وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه وهو يقول يا أيها الناس لا تطيعوه فإنه كذاب قلت: من هذا؟ قالوا: غلام من بني عبد المطلب قلت: فمن هذا يتبعه يرميه؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى - وهو أبو لهب " (٦).
فهذه الأحاديث كافية لتصوير حالة رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع قومه وعشيرته ولا تحتاج إلى
تعليق لتبين البلايا والمحن التي اختبر فيها رسول الله وهذا غيض من فيض ننقله من

---

(١) سورة ص: ٤٢.
(٢) الأنبياء: ٨٣.
(٣) الأنبياء: ٨٤.
(٤) البقرة: ١٨٦.
(٥) ميزان الحكمة محمدي الري شهري ج ٩ ص ٦٧٠.

(٦) ميزان الحكمة ج ٩، ص ٦٧١.

حياة الأنبياء سلام الله عليهم أجمعين وما تحملوه لغرض نشر الرسالة السماوية والقيام بوظائف النبوة الجسام.

تقارير الأنبياء

كل إنسان عندما يخوض تجربة من التجارب تتبلور في ذهنه حصيلة كاملة لمعطيات تلك التجربة - أسبابها - أثارها - قابليتها على البقاء والاستمرار - وهذه الحصيلة تبقى في ذهنه درسا لتجديد المواقف المستقبلية لأن المستقبل ما هو إلا تاريخ ماضي موسع تتغير عناصره وتتبدل أدوار شخصياته أما مضمونه ومحتواه هو نفس المضمون والمحتوى السابق، وهذه الحصيلة تعني عندنا بالتقرير.

فالأنبياء (عليهم السلام) يملكون تقارير مبلورة في أذهانهم، حصلوا عليها من خلال التبليغ

المستمر في مجتمعاتهم.

والإنسان عندنا يرفع حصيلة تجاربه إلى الجهات العليا التي ينتظر منها الحل المناسب والذي يعتبر ذلك نتيجة لتقريره فالنبي ينتظر الحل من الله تعالى لأن النبي أعلى جهة أرضية فلا ملاذ إلا أن يرفع تقريره إلى الله تعالى إلى السماء حتى يحصل على الحل المناسب، وإذ كان نوح (عليه السلام) أول نبي من الأنبياء سلام الله عليهم فتح باب

الاحتجاج في الدعوة إلى التوحيد وانتهض على الوثنية على ما يذكره القرآن الشريف (١) فإذا كان كذلك فلنبدأ بتقريره الذي يتضمن عصارة الدعوة إلى الله على مدى ٩٥٠ عام من الاحتجاج والتبشير برسالة السماء حيث قال.

* (قال ربي دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا) * * (وأني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا) * (٢) هذا التقرير الذي رفعه نوح (عليه السلام) وضمنه أولا

الوقت الذي يدعو فيه قومه فكان يدعو ليلا ونهار بدون كلل ولا ملل يعتريه كان يشعر بأن الله قد بث فيه الحياة ليبلغ رسالته ما دام وبعد ذلك أنتقل في الكلام إلى خصمه وهم قومه الذي بالغوا في الاحتجاج والخصومة، فالمواجهة السائدة بين

---

(١) الميزان - الطباطبائي.

(٢) نوح: ٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩ - ١٠.

الخصوم عادة أحدهما يقيم دليلا والآخر يدفعه أما قوم نوح (عليه السلام) كانوا يفرون من
دعاء هذا العبد الصالح، ولهذه المواجهة وهذا الأسلوب وقع مؤلم في قلب الداعي
ولم يقف نوح (عليه السلام) عند هذا الحد في رفع تقريره بل أكد ذلك بقوله * (وإني كلما
دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) *.
نوح سلام الله عليه يدعو ليغفر الله لقومه والقوم يواجهوه بوسائل عديدة لإيقافه
والوسيلة الجديدة هي منع الحواس من الاستماع والنظر إلى نوح (عليه السلام) حتى يقولوا له
لا فائدة من دعوتك لنا وإنا قوم مستكبرون.
فعندما يلاحظ الإنسان المعادلة بين نوح وقومه، فنوح يدعو الله ليغفر لقومه والقوم يفرون منه ويمنعون حواسهم من الاستماع والنظر إليه فعندما يلاحظ هذه المعادلة تجد الطرف الداعي يمتلك كل مقومات الإنسانية حتى وصل به الحد إلى الدعوة لغفران ذنوب الذين لا يستحقون حتى الكلام معهم أما الطرف الآخر لا يعرف من الإنسانية شئ ولا يريد أن يخضع لمقومات العقل وللطرق السائدة في المجتمعات البشرية.
وحسبهم هذا التفاوت بيننا * فكل إناء بالذي فيه ينضح (١)
واستمر نوح في تقريره وفصل فيه كل جوانب دعوته ابتداءا بالوقت المبذول للتبليغ * (قال ربي إني دعوت قومي ليلا ونهار) * (٢) ومرورا بوسائل الأعداء التي واجهوه فيها * (جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) *
ثم ذكرهم سلام الله عليه في تقريره بالنعم التي أنعم الله بها عليهم * (ما لكم لا ترجعون لله وقارا) * * (وقد خلقكم أطوارا * () * ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات
طباقا) * * (وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) * * (والله أنبتكم من الأرض
نباتا) * * (ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا) * * (والله جعل لكم الأرض بساطا) *
* (لتسكنوا منها سبلا فجاجا) * (٣) وبعد ذلك أراد نوح سلام الله عليه أن ينهي تقريره
ولكن كيف ينهي تقريره ولم يحصل على النتيجة النهائية من قومه فظل يدعوهم وهم يفرون وينكرون إلى أن استيقن نوح (عليه السلام) بأن قومه * (مكروا مكرا كبارا) * فلم

---

(١) ابن الصيفي
(٢) نوح: ٥.
(٣) نوح: ١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩ ٢٠.

ينفعهم بعد ذلك إلا الحل الإلهي والتدخل الإلهي عندما تصل النتيجة إلى هذا الحد.
* (قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا) * (١) عصوه لأنهم لم يستجيبوا له بحيث كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعون دعوته، وبعصيانهم هذا اتباع للهوى والظلال فرأى نوح سلام الله عليه أن يذيل تقريره باليأس منهم حيث قال: -
* (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) * (٢)
وختم نوح (عليه السلام) تقريره الذي يعبر عن المأساة التي عاشها لحظة بلحظة واستحق بها
إن تدرج سورة كاملة باسمه في القرآن وهي سورة نوح التي هي خلاصة تقريره الذي ختمه في نهاية المطاف بالدعاء والمغفرة له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات الذين دخلوا بيته ولم يقصد البيت المادي بل قصد الدخول في دعوته ودينه الذي هو دين التوحيد على مر العصور.
فهذا التقرير هو حصيلة المواجهة بين نوح وقومه رفعه إلى أعلى سلطة متصورة لينتظر منها الحل المناسب حتى تنتهي تلك التجربة المريرة التي خاضها مع قلوب
* (كالحجارة أو أشد قسوة) * (٣) وما أن انتهى من رفع هذا التقرير حتى جاء الجواب
الإلهي ليخفف عن نوح المواجهة ويطيب خاطره فقال تعالى * (وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تيأس بما كانوا يفعلون) * * (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) * (٤) وبالفعل باشر نوح (عليه السلام) بصنع السفينة ولم يكف القوم عنه بل راحوا يستهزءون منه ومما يفعل ولم يزد
نوح هذا العمل إلا إصرارا وعزيمة في بناء السفينة والامتثال للأمر الإلهي انتظارا لأمر الله وفوران التنور * (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل) * (٥)
فامتثل نوح (عليه السلام) لأمر الله وتوجه إلى من أراد أن يركبهم في السفينة * (قال اركبوا

---

(١)
(٢) نوح: ٢٧.
(٣) البقرة: ٧٤.
(٤) هود: ٣٦ - ٣٧.
(٥) هود: ٤٠.

فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم) * (١) وجاءت سنة الله تعالى في القوم الكافرين جاء الطوفان الإلهي الذي لا يعصم أحد منه وطهر هذا الطوفان وجه الأرض من الذين وقفوا لنوح وصدوا لدعوته وانتهت القصة بهذا الحل المناسب واستجاب الله دعوة نوح (عليه السلام) * (لقد نادانا نوح فلنعم المجيبون) * (٢) ثم جزاه الله جزاء
الصابرين وأسدل عليه نعمه الظاهرة والباطنة تكريما له حيث قال تعالى * (وجعلنا ذريته هم الباقين) * * (وتركنا عليه في الآخرين) * * (سلام على نوح في العالمين) * * (أنا كذلك نجزي المحسنين) * * (أنه من عبادنا المؤمنين) * (٣) أما المشركين فكانت
عاقبتهم الغرق والذل والهوان * (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) * (٤).
وفي زاوية أخرى من زوايا التاريخ نجد نبي الله موسى (عليه السلام) يقدم تقريره إلى الله
تعالى بجملة سلسة وسهله وبعبارة قصيرة حوت على كل ما يستطيع موسى أن يقدمه إلى الله تعالى كخلاصة لتجربته مع مجتمعه حيث قال * (قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بينا وبين القوم الفاسقين) * (٥) وما أن أكمل موسى هذه الكلمات الصادرة من عمق المأساة والمعاناة والعمل اليومي الدؤوب مع بني
إسرائيل حتى جاء الخطاب الإلهي * (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) * (٦).
فالحل هو التيه والتحير، التيه الحضاري والفكري والسياسي فهذه نقمة الله تعالى وهذا عذاب الله.
وأخيرا أيوب (عليه السلام) إذ يرفع تقريره إلى الله تعالى بأوجز عبارة في أعمق مصيبة * (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) * (٧) فهذه الألفاظ تضمنت معنى يعجز المتكلم أن يوصفه ويحدده فاستجاب الله لدعاءه * (أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) * (٨) يا أيوب أسرع وتذوق حلاوة الدعاء والصبر

---

(١) هود: ٤١.
(٢) الصافات: ٧٥.
(٣) الصافات: ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١.
(٤) الصافات: ٧٣.
(٥) المائدة: ٢٥.
(٦) المائدة: ٢٦.
(٧) الأنبياء: ٨٣.
(٨) ص: ٤٢.

على البلايا والمصائب.
لماذا يحتاج الناس إلى الأنبياء
" الجهل في حقيقته وثنية لأنه
لا يغرس أفكارا بل ينصب أصناما " (١)
الدنيا دار مركبة متزاحمة ومحدودة تتصارع فيها القوى والشهوات كل شئ فيها معرض للزوال والانحلال وفي زحمة هذا الصراع المستمر يتيه الإنسان ويظل إذا لم يوجد الهادي والمدل على الطريق الصحيح القويم، يتيه لأن للجهل مكان وبوجود الجهل يبزغ الصنم فيستحكم في نفسية الإنسان فيدور الإنسان بأفكاره وعقائده مدار الموجود الصنمي المخلوق من لا شئ سوى جهالات فارغة المحتوى والمضمون، ويضل الإنسان إذا لم يوجد من يدله على الطريق القويم ومن هذا المدل؟ ليس إلا ذلك النبي الذي يتصل بخالق الإنسان ليبين له طبيعة البشر ويهديه إلى الطريق الصحيح الذي يناغي فطرة البشر ويرسم له الخطط ويحدد له الوسائل ليخرج الخلق من الظلمات إلى النور ومن الجهل إلى الأفكار ومن البدوية إلى المدنية.
فاحتياج الناس إلى الأنبياء احتياج الظلام إلى النور، احتياج الجهل إلى العلم، فهم سلام الله عليهم يوقدون الشموع في طريق الإنسانية لتصل إلى ربها وخالقها لتصل إلى الحقيقة التي من أجلها خلقت، لتصل إلى علتها الحقيقية في وجودها وبقائها، وإلا إذا انقطع الإنسان عن ربه انقطع عن نفسه لأن المعلول وكما هو مقرر في علم الفلسفة موجود فقير رابط غير مستقل متقوم بهذه الرابطة الوجودية بنيه وبين علته فإذا انقطعت انتهى المعلول وجودا وبقاءا فالإنسان معلول لله تعالى في وجوده وبقاءه فإذا فقد المدل إلى الله تعالى انقطعت الرابطة بينه وبين ربه.

---

(١) شروط النهضة – مالك بن نبي ترجمة عصر كامل وعبد الصبور شاهين.

* (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) * (١)
فلا بد للإنسان من نبي يهديه إلى الطريق القويم الصحيح ويجنبه مخاطر الهلكة والسقوط في الهاوية ويأخذ بيده إلى الجنة الموعودة إلى جنة الخلد والرضوان.
يقول صاحب ميزان الحكمة (٢): -
" فإن قلت: كفى في الدعوة ما يدعو إليه العقل من اتباع الإنسان للحق في الإعتقاد والعقل، وسلوكه طريق الفضيلة والتقوى، فأي حاجة إلى بعث الأنبياء؟
قلت العقل الذي يدعو إلى ذلك، ويأمر به هو العقل العملي الحاكم بالحسن والقبح دون النظري المدرك لحقائق الأشياء كما مر بيانه سابقا والعقل العملي يأخذ مقدمات حكمه من الإحساسات الباطنة، والإحساسات التي هي بالفعل في الإنسان في بادي حاله هي إحساسات القوى الشهوية والغضبية، وأما القوى الناطقة القدسية فهي بالقوة، وقد مر أن هذا الإحساس الفطري يدعو إلى الاختلاف ، فهذه التي بالفعل لا تدع الإنسان يخرج من القوة إلى الفعل كما هو مشهود من حال الإنسان فكل قوم أو فرد فقد التربية الصالحة عاد عما قليل إلى التوحش والبربرية مع وجود العقل وحكم الفطرة عليهم، فلا غناء عن تأييد إلهي بنبوة تؤيد العقل ".
الشخصية النبوية
عندما يتكلم الباحث عن شخصية من الشخصيات لا يستطيع مهما بحث أن يستوعب كل الجوانب التي تحيط بتلك الشخصية وخصوصا إذا كانت الشخصية شخصية عظيم من العظماء أو رجل استطاع أن يحقق أشياء عجز عنها الآخرون فكيف بنا ونحن نبحث في شخصية الأنبياء سلام الله عليهم الذين هم مشاعل التاريخ على مر العصور والذين هم سفراء الله إلى خلقه وإذ لاحظنا تعاريف علم النفس للشخصية وجدناها كثيرة جدا مختلفة باختلاف المدارس والتوجهات التي يتوجه إليها أصحاب تلك المدارس وسبب الاختلاف هذا أن الشخصية مركبة من وحدات صغيرة كل منها لها مدخل في بناء الإنسان مثل الخلق، والمزاح، والعوامل

---
(١) الحشر: ١٩.
(٢) ميزان الحكمة - محمدي الري شهري - ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

الجغرافية والسياسية التي تحيط بالفرد، فنجد بعض المدارس عرفت الشخصية " جملة الصفات الجسمية والعقلية والمزاجية والاجتماعية والخلقية التي تميز الشخص عن غيره تميزا واضحا " (١).

والبعض الآخر عرف الشخصية بأنها: -

" مركب من صفات مختلفة تميز الشخص عن غيره خاصة من ناحية التكيف للمواقف الاجتماعية " وهناك تعاريف أخرى كثيرة كلها تبحث عن الشخصية وكيفية تركيبها والعوامل وطرق نموها، ونحن عندما نبحث عن شخصية الأنبياء في هذا البحث نحاول قدر الإمكان أن نبحث عن الأنبياء في التعامل مع أنفسهم الطاهرة أولا ثم مع مجتمعاتهم ثم مع أعدائهم ونلاحظ طرق التعامل المختلفة من مجتمع إلى آخر وسبب اختلاف تلك الطرق.

استعداد الأنبياء النفسي

كل شئ يصدر من الإنسان لا يصدر عن فراغ وإنما يصدر عن مبدأ وجودي في نفس الإنسان فالنفس فيها مبادئ الأشياء الصادرة منها " فالنفس الإنسانية التي هي صورة جوهرية مجردة متعلقة الفعل بالمادة علة فاعلية للأفعال الصادرة عن الإنسان " (٢) وإذا لا حظنا الأنبياء سلام الله عليهم نجدهم يتميزون بميزات تختلف عن الميزات العامة لصنف البشر وهذا التمييز ناشئ من مبادئ في نفوسهم الشريفة أعطاها الله لهم لما علم منهم إنهم لا يريدون إلا الطاعة والسير في طريق التكامل فهذا حبيب الله محمد (صلى الله عليه وآله) وخاتم الأنبياء وسيد الرسل حيث يقول بحقه

الأستاذ محمد محمد يوسف: -

" كان رسول الله في طفولته ناشئا كريما وفي ريحانة عالي الهمة عفيفا وفي تجارته أمينا قانعا وفي شركته أخا صادقا وفي حربه خصما معقولا شريفا وفي معاهداته نافرا من الغدر وافيا بالعهد وفي زواجه مثالا للنفس السامية والخلق الكامل وفي حكمه أمينا على الحق ناصرا له هداما للباطل مقوضا لبيانه " (٣).

---

(١) أحمد عزة راجح أصول علم النفس.

(٢) نهاية الحكمة - السيد الطباطبائي ص ١٢١.

(٣) أخلاق الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) محمد محمد يوسف.

فهذه المواصفات لم تأتي لرسول الله (صلى الله عليه وآله) من فراغ بل ناشئة من نفسه الكريمة فهو
صاحب النفس الكريمة الخالية من الشرور والرذائل الأخلاقية حاشاه ثم حاشاه من كل وصف فيه شائبة من شوائب الشر، وكذلك نبي الله أيوب سلام الله عليه وما تحمله من الصبر حيث قال تعالى بحقه: -
* (أنا وجدناه صابرا) * (١) أي صابرا فيما ابتليناه من المرض فمدحه الله تعالى في كتابه * (نعم العبد إنه أواب) * (٢) فهذه الصفة لها مبدأ في نفس هذا العبد الصالح الذي
واجهه المصائب التي ابتلى بها بهذا الدعاء.
* (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب) * (٣) وما هذا الكلام إلا نزر قليل من المصائب والبلايا التي تحملها الأنبياء سلام الله عليهم فسلام عليهم يوم ولدوا ويوم ماتوا ويوم يبعثون أحياء عند ربهم ليشهدوا على أممهم.
السياسة لغة واصطلاحا
السياسة لغة، جاء في لسان العرب ما يلي (٤).
السوس: - الرياسة يقال ساسهم إذا رأسهم، ويقال سوسوه وآساسوه إذا رآسوه، وساس الأمر سياسة قام به، والجمع ساسة وسواس.
سادة قادة لكل جمع * ساسة للرجال يوم القتال
ويقال: - سوس الرجل أمور الناس إذا ملك أمرهم.
لقد سوست أمر بنيك حتى * تركتهم أدق من الطحين
وفي القاموس: - في مادة سوس الحديث، " كان بني إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم " أي يتولى الأنبياء أمرهم كما يفعل الولاة والأمراء.
وفي القاموس أيضا: - سست الرعية أمرتها ونهيتها، وفلان مجرب قد ساس أي أدب ومجرب قد سيس عليه أدب وسوس فلان أمور الناس صير ملكا.
وفي أساس البلاغة: - " الوالي يسوس الرعية ويسوس أمرهم ويسوس أمورهم، وسوس فلان أمر قومه.

---

(١) ص: ٤٤.
(٢) ص: ٤٤.
(٣) سورة ص: ٤١.
(٤) لسان العرب مادة سوس.

ويذكر أن أبي العلاء المعري هجا حكام عصره لأنهم يسوسون الأمة بغير رشد وعقل حيث قال (١): -

يسوسون الأمور بغير عقل * فينفذ حكمهم ويقال ساسة
فأف من الحياة وآف منهم * ومن زمن رياسته خساسة

أما السياسة اصطلاحا فذكرها الشيخ كاشف الغطاء حيث قال (٢): -

إذا كان المعنى بها هو الوعظ والإرشاد والنهي عن الفساد والنصيحة للحاكمين بل لعامة العباد والتحذير من الوقوع في حبائل الاستعمار والاستعباد ووضع القيود والأغلال على البلاد وأبناء البلاد فأنا غارق فيها إلى هامتي وهي من واجباتي وأراني مسؤولا عنها أمام الله والوجدان وهي من وظائفي ووظيفة آبائي الذين كانت لهم الزعامة الدينية منذ ثلاثة قرون أو أكثر لا في العراق بل في دنيا الإسلام كله وهي النيابة العامة والزعامة الكبرى والخلافة الإلهية العظمى حيث يقول تعالى في كتابه العزيز.

* (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق) *

وفي بعض الزيارات للأئمة سلام الله عليهم يقول: -

" وأنتم ساسة العباد وأركان البلاد " فسياستنا (والكلام للشيخ) هي سياسة النبي والأئمة سلام الله عليه وعليهم الخالية عن كل هوى وهوس وطمع ودنس.

وبهذا العرض الرائع لمعنى السياسة يحدد هذا الرجل العظيم معنى السياسة التي هي مهمة الأنبياء والأولياء والعلماء من بعدهم، يحددها بهذا المعنى الشامل البعيد كل البعد عن الانحراف واتباع الأهواء والبعيد عن الفصل المأخوذ في السياسة في عالمنا المعاصر الذي هو عالم المصالح وسياسة المصالح بعيدا عن القيم والتقاليد والأخلاق.

فالسياسة في المصطلح الإسلامي هي الولاية وتدبير شؤون الرعية بما يصلحها، أما في المصطلح العربي المعاصر يعرفون السياسة بأنها: -

" أشمل من الحكم وأنها علم الدولة التي تبحث عن التنظيمات البشرية وعن تكوين الأحداث السياسية وعن تنظيم الحكومات وفي فعالية الحكومة التي لها صلة

---

(١) باقر شريف القرشي، النظام السياسي في الإسلام ص ٤٤.
(٢) السياسة والحكمة - الإمام الأكبر محمد حسين آل كاشف الغطاء.

تشريع القوانين وتنفيذها وفي علاقاتها بالدول الأخرى وبيان مدى العلاقة بين الشعب والدولة وارتباطات الدول بعضها مع بعض " (١) فالسياسة في المفهوم الغربي هي البحث عن المصالح الخاصة والعامة للدولة وارتباطاتها بالدولة الأخرى وهذا المعنى لا يخلو من شائبة المصالح واتباع شتى الوسائل للوصول إلى هذا الفن وتطبيقه وكسب المصالح والمنجزات السياسية بأي طريق كان بخلاف السياسية في المصطلح الإسلامي فهي النيابة العامة والزعامة والخلافة الإلهية الكبرى " يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق " (٢).

فالمراعى في هذه السياسة هو الحق لا المصالح والمكاسب على حساب القيم والدين.

وفي هذا البحث نرى كيف طبقت هذه السياسة ومن الذي طبقها على الأمم والشعوب، فنقول ومن الله العون إن السياسة الحقة هي سياسة الأنبياء وهي الخلافة الإلهية لأنبياء الله على خلقه وهي تابعة لسلطتهم على الناس في كل الشؤون الخاصة والعامة حيث يقول الشيخ الأنصاري في بحث ولاية الفقيه ما معناه أن الولاية بكل أصنافها ثابتة للنبي والأئمة من بعده صلوات الله عليهم أجمعين بالأدلة الأربعة (٣).

١ - القرآن

* (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) *

* (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) *.

* (إنما وليكم الله ورسوله) *

٢ - السنة الشريفة

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) " أنا أولى بكل مؤمن من نفسه "

٣ - الإجماع يؤيد ذلك

٤ - العقل

قاضي بوجوب شكر المنعم بعد معرفة أنهم أولياء النعم فالأنبياء والأولياء سلام الله

---

(١) أدب السياسة عن باقر شريف القرشي.

(٢) ص ٢٦.

(٣) المكاسب: - الشيخ الأنصاري قد كتاب البيع في تعيين مناصب الفقيه.

عليهم أجمعين لهم السلطة المطلقة على الناس في كل الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهذه السلطة مجعولة من قبل الله تعالى لأنبياءه وأولياءه.

أنواع السياسات

مهما تحددت السياسات وتشعبت وفي أي مكان طبقت لا تخرج عن نوعين يلازمان السياسة في كل عصر وفي كل مكان وهما: -

١ - السياسة العادلة

٢ - السياسة الظالمة

يقول ابن الجوزي (١)

" إن السياسة نوعان سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر فهي من الأحكام الشرعية علمها من علمها وجهلها من جهلها والنوع الآخر سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها ".

وما دمنا حددنا أنواع السياسات فلا بأس بعرض موجز لمظاهر كل نوع حتى تتغير سياسة الأنبياء من سياسة غيرهم.

السياسة العادلة

العدل: - هو القصد في الأمور وهو خلاف الجور (٢).

وقيل العدل: - ما قام في النفوس أنه مستقيم وهو ضد الجور (٣).

فالسياسة العادلة: - هي الأفعال التي يكون فيها الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد من الفساد، وهذا المعنى هو الشعار الذي رفعه الأنبياء لأن له مبدأ في أصل الفطرة

---

(١) النظام السياسي في الإسلام: - باقر شريف القرشي.

(٢) المصباح

(٣) لسان العرب

البشرية.
* (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) *.
فأمر الله لأنبياءه الذين هم سفراءه إلى خلقه ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، فالسياسة العادلة هي سياسة الأنبياء والأئمة والهداة سلام الله عليهم أجمعين.
* (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) * (١).
وكما جاء في بحار الأنوار " عدل السلطان خير من خصب الزمان " (٢).
فالأنبياء جاءوا ليرفعوا شعار العدالة ويقيموا الحق والعدل ويدعوا الإنسانية بالرجوع إلى فطرتها السليمة ويحقوا الحق ويقيموا العدل لأن العدل أساس به قوام العالم (٣) ويحتاجه الإنسان في هذا العالم المادي المركب من قوى متنازعة متضادة فيما بينها تتصارع لكي تبقى حية فلا بد لها من مقنن يقنن لها هذا التنازع والتضاد، والعدل هو الأساس في هذا التقنين لأن الإنسان يقصده وينشده وهو مفطور عليه فهو ضالة الإنسان، وإذا تصفحنا تاريخ الأنبياء وجدناهم يرفعون شعار العدل في كل زمان ومكان وفي مختلف الظروف، فسياسة الأنبياء سياسة العدل والصلاح والإصلاح.

السياسة الظالمة

هذه السياسة قائمة على أساس المكر والخداع وتجاوز الحد وظلم الرعية واستنزاف ثروات الشعوب والسير بالمجتمع في طريق ضال.
* (بل الظالمون في ظلال مبين) * (٤)
فالسياسة الظالمة سياسة جائرة لا تعرف الرحمة، والإنسانية تحت هذا النوع من السياسة في منحدر خطير تواجه الدمار والهلاك وللأسف الشديد ما أكثر هذا النوع من السياسة على مر العصور لأن أصحاب هذا الاتجاه لا يقيمون للعدل وزنا ولا تحدهم الحدود فهم يرتكبون كل شئ لأجل الوصول والتربع على كرسي القيادة

---

(١) سورة النساء آية ٥٦.
(٢) بحار الأنوار ج ٧٨.
(٣) بحار الأنوار ح ٧٨.
(٤) لقمان ١١.

بأي طريق كان وبأي وسيلة كانت فطالما قفز الانتهازيون على حساب القيم والأخلاق للوصول إلى مآربهم الخبيثة حتى لو كلف ذلك دماء وكرامة الشعوب. أما أنبياء الله تعالى سلام الله عليهم الحق هدفهم والعدل شعارهم والرحمة طريقهم فسلام عليهم يوم ولدوا ويوم ماتوا ويوم يبعثون أحياء عند ربهم شهداء على أممهم .

الفصل الثاني
حاضر الرسالة مع الأنبياء (عليهم السلام)

" نوح "
القرآن الكريم تضمن بين طياته حكايات عن ماض سلف أراد منها أن تكون في محط أنظار رسول الله (صلى الله عليه وآله) في رسالته وفي مواجهته مع الأعداء وفي تحركه بالتبليغ
، والسر في ذلك أن الأعداء مهما حاولوا فإن وسائلهم في المواجهة تتحد بعيدا عن ظروف الزمان والمكان فهم يستخدمون نفس الأساليب عندما يواجهون البرهان والحجة القاطعة فيتحركون من قواهم الغضبية والشهوية، أما صاحب البرهان والدليل القاطع يتحرك على أساس ما يمليه العقل في اتباع مقدمات البرهان إذا كانت بديهية ومسلم بها.
فذكر لنا القرآن الكريم النازل على صدر رسول الله (صلى الله عليه وآله) قصص كثيرة ليستأنس بها
الرسول وستخرج منها طرق وأساليب المواجهة ويتعرف على ما فعله المشركون مع الأنبياء (عليهم السلام) وإن كانت تفصيلات هذه القصص غير مذكورة لأن الهدف من القرآن
هو بيان الرسالة والخط العام الذي تتحرك فيه فقصة نوح سلام الله عليه ابتدأت بالإنذار حيث قال تعالى.
* (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين) * (١) فالهدف من إرساله هو هداية قومه وجعله نذيرا لهم من يوم لا ينفع فيه شئ إلا من اتبع الحجة والبرهان القاطع وسار خلف عقله ومنطق الإنسانية الفطري فكلمة * (نذير مبين) * أجملت رسالة نوح بكاملها بأوجز كلمة وأسهل عبارة ثم بدأ القرآن الكريم يشرع في ذكر الموارد المفيدة في القصة فقال: -
* (أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) * (٢)
هذا المنطق النبوي الذي جاءت به كل رسالات السماء وهو العبودية المحضة لله تعالى والتوجه الخالص المنقطع عن كل شئ خارج إطار التسليم فهو يقول:
* (أن لا تعبدوا إلا الله) * (٣)
أي لا رب ولا خالق ولا مكون في الوجود سوى الله تعالى فلا مفر منه إلا إليه بطاعته والتسليم الكامل الغير مشوب بشرك في الإعتقاد والعمل ثم قال * (إني أخاف

---

(١) هود: ٢٥.
(٢) هود: ٢٦.
(٣) هود: ٢٦.

عليكم عذاب يوم أليم) * (١) فهذا العذاب المتوقع باعتباره سنة إلهية جرت على عالم التكوين فهو أما عذاب الاستئصال أو عذاب القيامة، فنوح (عليه السلام) يبين لهم السر من
دعوته أنه يخاف عليهم من عذاب الظلال والانحراف عن طريق الحق والسلوك الغير منطقي وراء الشهوات الفانية.
فهذه الدعوة النابعة من قلب حنون * (إني أخاف عليكم) * فهو يخاف على قومه وكأنهم أبناءه وإخوانه وهذا شأن كل الأنبياء (عليهم السلام) لأنهم ينطلقون من منطق الرحمة
والرأفة بأقوامهم ويتحركون وفق ما تمليه عليهم رسالاتهم في دعوت الشعوب ومقابل هذا نجد الذين خاف عليهم نوح عذاب يوم أليم يواجهون الرسالة وقائدها بتقاليد سادت في مجتمعاتهم لم تكن لها قاعدة في التفكر المنطقي بل أملتها الظروف التي عاشوها فهم واجهوه بالعادات بعيدا عن الأفكار والحجج العقلية.
* (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادئ الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) * (٢).
هذه المواجهة حددت لنوح (عليه السلام) عدة مسائل فلا بد من معرفتها أولا ثم معرفة الطرق
التي استخدمها نوح في مواجهة قومه على ما أثاروه من مسائل.
المسألة الأولى:
* (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) *
المتتبع لرسالات الأنبياء في القرآن يجد أن المتصدي الأول لها هم الملأ أي الأغنياء وأصحاب الثروات المادية والمعنوية في المجتمع والسر في ذلك أن هؤلاء يعيشون في وضع مستقر نسبيا بعيدين عن الهزات الاقتصادية والاجتماعية
والسياسية التي تصيب المجتمع، فالأنبياء (عليهم السلام) واجهوا القوى الموجودة في المجتمع
، لأن الأغنياء هم القوة العامة بما يمتلكون من مقومات اقتصادية جعلتهم في سلم الهرم الاجتماعي، فكيف واجه نوح هذه المشكلة مع العلم بأن هؤلاء يترصدون الأجواء ويحاولون أن يحافظوا على مواقعهم وعلى أموالهم ولا يسمحوا لأحد أن يقودهم ظنا منهم أنه بحاجة إلى ما يمتلكون.
المسألة الثانية:

---

(١) هود: ٢٦.
(٢) هود: ٢٧.

* (ما نراك إلا بشرا مثلنا) *
الشعوب عادة تبحث عن ميزات وفضائل تنسبها إلى من تتبعه لتبرر اتباعها له، هذه عادة جرت في المجتمعات فكل إنسان عندما يكون مقودا لا بد أن يمتلك المبرر الكافي الذي يجعله تابعا لقائد يمتلك مواصفات خاصة فكيف تعامل نوح (عليه السلام) مع
هذه المسألة.
المسألة الثالثة:
* (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) *
المسألة الأخرى أن الشعوب اعتادت على عدم احترام الفقير فهي لا تحترمه ولا تقيم له وزنا بل أكثر من ذلك يستنكفون حتى من معاملته ومعاشرته والتاريخ ملئ بالحوادث الشاهدة على ذلك فما هو الحل.
المسألة الرابعة:
* (وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) *
ما هي الميزة التي تميز بها نوح وأصحابه على الآخرين وما هو الفضل الذي قدمه نوح وأصحابه للآخرين حتى يكون الطرف المقابل مستسلما غير معاند.
جواب المسألة الأولى
السياسة المتبعة من قبل نوح (عليه السلام) هي سياسة المكاشفة والاطلاع على الحقائق لا
سياسة الشعارات الفارغة والوعود المعلقة من غير إنجاز فهو يواجههم بالواقع لا بالغش والمخاتلة، فهؤلاء عندما واجهوا رسالته وهم القوى الموجود في المجتمع بما يمتلكون من مميزات تجعلهم يتبعون مصالحهم الشخصية ومكاسبهم المادية بأي أسلوب وطريق كان لم يواجههم بنفس الأسلوب كما هو السائد في عالمنا اليوم بل واجههم بأسلوب الأنبياء ومنطق السماء فقال لهم.
* (ويا قوم لا أسئلكم عليه ما لا إن أجري إلا على الله) * (١)

---

(١) هود: ٢٩.

فأنا لا أريد أن أتآمر عليكم لمكسب مادي بل أنا رسول من رب العالمين أنذركم عذاب يوم لا ينفعكم فيه ما تملكون، وأما أجري إلا على الله مالك الملك فهو الذي يعطي وإن منع الآخرون وهو الذي يمنع وإن أعطى الآخرون فكل شئ بيده، فنوح يبعد من أذهانهم هذه التقاليد أن إنسان لا بد أن يكسب أجرا ماديا عندما يعمل عمل بل أراد أن يعطيهم مفهوما في الحياة وهو عدم انحصار المكاسب بالماديات فقط بل المكاسب الحقيقية هي المعنوية عند الله تعالى ثم قال: -

* (ولا أقول لكم عندي خزائن الله) * (١)

فأنا لا أملك خزائن الأرض وكنوزها حتى تتبعوني بل أنا هاديكم إلى الرشاد وطريق الصلاح فكونوا على بينة من أمركم، هذا هو منطق الأنبياء منطق الحق والعدالة لا يراوغون حتى يكسبوا الأنصار ولا يرغبون في الكمية بقدر اهتمامهم بالنوعية فهم يريدون متبع الرسالة أن يكون مخلصا صادقا مع نفسه ومع الناس حتى يكون قادرا على التغير والتبليغ ونشر الخير والفضيلة في المجتمع

جواب المسألة الثانية

أما بالنسبة للمسألة الثانية عندما قالوا له * (ما نراك إلا بشرا مثلنا) * أنت بشر ونحن بشر فلماذا نتبعك وأنت تحمل نفس المواصفات التي نحملها ففي هذا الكلام شقان : -

الشق الأول: أنهم بشر ونوح بشر

الشق الثاني: أنهم يحملون نفس المواصفات التي يحملها نوح

أما بالنسبة للجواب على الشق الأول أن نوح بشر يأكل ويشرب ويتزوج ويسير بين الناس فهذا ما لا إشكال فيه فقال لهم.

* (ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك) *

فأنا بشر مثلكم أعطاني الله الرسالة لأهديكم إلى سواء السبيل ولست بملك كي أتمتع بمواصفات الملائكة لا أجبركم على الطاعة والسير خلفي فأنا بشر أدعوكم إلى الحق من ربكم.

---

(١) هود: ٣١.

وأما الشق الثاني بأنهم يحملون نفس المواصفات التي يحملها نوح فهذه مغالطة منهم لا يمتلكون تلك المواصفات التي استحق بها نوح النبوة ولم يقرهم نوح على ذلك فقال لهم.

* (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) * (١)

فأنا رسول رب العالمين على بينة من ربي عميتم عنها بسبب اتباعكم الظلال والأعراض، فعندي جميع ما تحتاج الرسل إليه من الله في رسالته وقد أوقفتكم عليه لكنكم لا تؤمنون به طغيانا واستكبارا وليس على أن أجبركم إذ لا إجبار في دين الله (٢).

جواب المسألة الثالثة

* (وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكن أراكم قوما تجهلون) * (٣)

فالقوم طلبوا من نوح (عليه السلام) أن يطرد الأراذل بحسب تعبيرهم ويعنون بهم الفقراء لأن

الفقير في تلك المجتمعات خلق ليتمتع به الغني فهو وسيلة من وسائل جلب المنافع للأغنياء فيعدوهم أراذل، فهم يقولون لنوح اطراد هؤلاء من حولك فهم اتبعوك من غير روية وتفكير فأجابهم نوح (عليه السلام) بأن هؤلاء مؤمنين وأنا لا اطردهم وما أحكامكم عليهم إلا لأنهم فقراء لا يملكون ما تمتلكون فحكمتم عليهم في الظاهر وهذا جهل منكم لعل الله رافعهم درجات عنده وواضعكم، ثم أراد أن يؤكد هذا المبدأ وهو أن الفقراء وغيرهم خلق واحد لا تمايز بينهم في أمور ظاهرية غير مقاس عليها فقال لهم.

* (ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في نفوسهم إني إذا لمن الظالمين) * (٤)

يعني لا أقول للذين تستغلونهم وتستهينون بهم لموازين ومقاييس أنتم جعلتموها لا أقول لهم إن الله لن يؤتيهم من فضله بل الله أعلم منا بهم فهذا من أروع الردود على

---

(١) هود: ٢٨.
(٢) الميزان ج ١٠.
(٣) هود: ٢٩.
(٤) هود: ٣١.

الطبقية في المجتمع والسيادة الغير قائمة على أسس عقلية سليمة.
فهذه هي سياسة نوح (عليه السلام) مع الفقراء ومع الأغنياء لا يظلم أحد ولا يؤذي أحد في
كلمة واحدة بل يقول لو حكمت على الفقراء مثل ما حكم الأغنياء عليهم لكنت من الظالمين.
جواب المسألة الرابعة
هؤلاء يعتبرون الفضل هو الكثرة في المال والشرف في النسب (١) فعندما لاحظوا أتباع نوح وجدوهم فقراء مساكين لا يمتلكون جاها اجتماعيا أو سياسيا أو اقتصاديا في المجتمع لأن ترتيب الخسة والشرافة عندهم بحسب ما تمتلك من مميزات مادية جعلته في سلم الهوم والاجتماعي أو سياسي أو الاقتصادي مثلا فالفقراء لا يمتلكون من هذا شئ، فأجاب نوح فقال لهم أنا لا أملك خزائن الأرض ولا أقول لكم عندي مواصفات خارقة للعادة " ملك مثلا " ولا أعلم الغيب حتى أجلب لنفسي الخير وأمنع عنها الشر بطريق هذا العلم بل أنا إنسان مثلكم ولكني رسول الله ومبلغ رسالته فإنا أحمل الفضل إليكم لأخرجكم من الظلمات إلى النور من العمى إلى البصر فقال لهم.
* (ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك) * (٢)
إلى هنا انتهت المحاجة بين نوح وقومه فهم أثاروا أمام دعوته عادات وتقاليد ورثوها من آبائهم وأرادوا أن يصدوا نوح عن دعوته بهذه العادات ولكن نوح (عليه السلام)
أجاب عن كل مفردة طرحوها ووضح لهم المناهج الحقة من المفاهيم الباطلة السائدة عندهم وأقام لهم الحجج والبراهين على دعوته ونبوته وعلى عادتهم اتبعوا وسيلة أخرى من وسائل المواجهة فبعد أن كانت المواجهة بين الطرفين بأفكار ساطعة وحجج واقعة أقامها نوح مع تقاليد وعادات اجتماعية رفعوها وأحسوا أن العادات والتقاليد لا تصمد أمام البراهين والأدلة لجئوا إلى أسلوب آخر وهذا الأسلوب أكثر مرارة على قلب النبي (عليه السلام) أسلوب عدم الإيمان بدون دليل أو برهان.

---

(١) بحار الأنوار: ج ١١، ص ١٠٣.
(٢) هود: ٣١.

إياس نوح من الدعوة
* (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصدقين) * (١).
هؤلاء لا يمتلكون العقول لكي يسيروا خلفها وإلا لا يوجد إنسان لا يتبع الحجة والبرهان وهو يمتلك قليلا من الشعور. فيا نوح نحن لن نؤمن لك ولقد مللنا من جدالك فأتنا بالعذاب الذي تعدنا به وما نحن بمؤمنين فأجاب نوح (عليه السلام) فقال: –
* (إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين) * (٢) حتى في هذه اللحظات يحاول نوح (عليه السلام) أن يدعوهم إلى الله وتوحيده واتباع أمره فهو يضيف لهم مفهوم جديد بأنه
غير قادر على أن يتصرف بمفرده وأن دعوته لهم ليست شخصية وذاتية نابعة من دوافع مصلحية وإلا لو كانت كذلك لقال لهم سوف أعذبكم وأخسف بكم الأرض انتصارا لما واجهه منهم فهو يقول لهم.
* (إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين) *
فعلق العذاب على مشيئة الله تعالى وأنتم لا تعجزون الله إذا أرد شيئا أن يقول له كن فيكون، فالأمر بيد الله تعالى لا بيدي أنا رسول رب العالمين فإذا أراد الله أن يغويكم لا أستطيع أن أصلحكم مهما فعلت وإذا أراد أن يصلحكم لا أستطيع إغوائكم فهو الخالق وهو المدبر أمر هذا الكون.
* (ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن انصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون) * (٣)
فهذه هي الوسيلة الثانية من وسائل المواجهة وهي وسيلة غلق الباب أمام نوح تماما فهم لا يريدون أن يؤمنوا بأن هناك ربا واحدا مدبرا لأمر هذا الكون بل يرغبون بالبقاء على ما هم عليه مهما كلف الأمر وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب إن كان صادقا أما سياسة نوح فاتخذت طابع الهداية من الأول فقال لهم يهديهم أنا لا أملك أمر عذابكم الأمر بيد الله تعالى فهذا الرد الهادي النابع من صميم القلب الحنون الذي يخاف على قومه (عذاب أليم) هذا الرد لم يواجهه القوم بروح مماثلة أي بروح الحب والحنان بل واجهوه بطرف وأساليب ضيقة لا تصل إلى نتيجة فقالوا له

---

(١) هود: ٣٢.
(٢) هود: ٣٣.
(٣) هود: ٣٤.

إنك افتريت وكذبت وأجابهم القرآن الكريم على هذه الفرية: -
* (أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا برئ مما تجرمون) *
إلى هنا كانت الوسائل المتبعة من القوم لمواجهة نوح كالآتي.
١ - مواجهته بالعادات والتقاليد السائدة في مجتمعاتهم.
٢ - غلق الباب أمام نوح وأنه لا فائدة من دعوته وإنهم لن يؤمنوا وطلبوا أن يأتيهم بالعذاب إن كان صادقا.
٣ - نسبة الكذب والافتراء إليه في دعوته لقومه.
أما نوح فقد واجههم بسياسة الأنبياء في هداية مجتمعاتهم فاتبع معهم الوسائل الآتية:
١ - حل الشبهات والألغاز التي ورثوها عن آبائهم وإخضاعهم للحجة والبرهان القاطع.
٢ - أخبرهم بأنه غير قادر على أن يجلب لهم النفع ولا يدفع عنهم الضرر بمفرده بل لا بد أن يتفاعل الطرفان فيما بينهم حتى يجلبوا الخير فعليه الدعوة وعليهم الاستجابة.
٣ - أخبرهم بأن دعوته لم تكن شخصية وذاتية تجلب له مصالح ومكاسب مادية بل دعوته إلهية وهو رسول من الله إليهم.
المجابهة بالقوة
ثم قالوا له * (لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) * (١)
هذه هي الوسيلة الجديدة التي يواجه القوم بها نوح (عليه السلام) وسيلة التهديد والوعيد
والخضوع إلى منطق القوة والاستغلال والابتعاد عن منطق العقل والاحتجاج وهي آخر ما يمتلكه المهزوم في جعبته عندما يهزم داخليا فهو يريد الإنتصار إلى شهواته لا إلى عقله فيلوح بالعصي الغليظ الذي يمتلكها ولا يمتلك شئ سواها أما نوح فلا بد من أن يتبع سياسة جديدة أمام هذه الوسيلة الجديدة، فهل يواجهها بسياسة المنطق والعقل أم بسياسة مماثلة، فمن المعلوم أن المنطق يواجه المنطق والقوة

---

(١) الشعراء: ١١٦.

تواجه القوة والقوم لم يتركوا مجال لاتباع العقل أمامهم فتوجه نوح إلى ربه في هذه اللحظة ليعطيهم درسا جديدا بأنه شخص لديه قوة غيبية يتوجه إليها وليس بمفرده * (قال ربي إن قومي كذبوني، فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين) * (١)

فهو يطلب الحل من الله أمام هذه الوسيلة الجديدة التي لا يمكن مقابلتها بالتذكير والوعظ والإرشاد وما أن أتم نوح قوله حتى جاءه الخطاب الإلهي ليسليه ويطيب خاطره ويحسسه بالمعية الإلهية فقال له:

* (وأوحي إلى نوح أن لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) * (٢)

فهي تطمئن قلبه بأن الله معه ولن يتركه وهو يعلم ما يفعله المجرمون به وما عليك إلا أن تذكرهم بآيات الله عز وجل وأما إيمانهم وعدمه فهو تابع لهم فلا تبتأس بكل وسائل المواجهة التي واجهوك فيها، عند ذلك توجه نوح إلى ربه ليرفع له تقرير بالكامل ويفصل فيه دعوته طول هذه السنين التي مرت يفصلها بعيدا عن إطار الزمان والمكان فقال.

* (قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا) * * (فلم يزدهم دعائي إلا فرارا) * * (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) * * (ثم إني دعوتهم جهارا) * * (ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم أسراره) * * (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا) * * (يرسل السماء عليكم مدرارا) * * (ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) * * (ما لكم

لا ترجعون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا) * * (ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا) * * (وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) * * (والله أنبتكم من الأرض

نباتا) * * (ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا) * * (والله جعل لكم الأرض بساطا) * * (لتسلكوا فيها سبلا فجاجا) * * (قال نوح رب أنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا) * * (ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ظلالا) * * (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) * * (وقال

---

(١) الشعراء: ١١٧.

(٢) هود: ٣٦.

نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) * * (رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الضالمين إلا تبارا) * (١).

هذه خلاصة الدعوة التي قام بها نوح رفعها إلى مرسله بقلب يحن إذا ذكر نعم ربه ويتألم إذا ذكر قومه وصدودهم عنه، رفع هذا التقرير إلى ربه لكي يرى ماذا يفعل بهم ربهم بعدما عجز نوح عن دعوتهم وما أن تم هذا التقرير الذي اختصر السنوات المليئة بالأحداث والآلام لنوح (عليه السلام) جاء الحل النهائي.

الحل النهائي

* (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) * (٢)

فاصنع يا نوح السفينة بتسديدنا وتوجيهنا ولا يرق قلبك إلى هؤلاء الظلمة سوف يأتيهم عذابنا عما قليل وتطهر الأرض من رجسهم وتبدأ مرحلة جديدة من حياتك مع الناس فأخذ نوح يصنع بالسفينة ولكن القوم لم يكفوا عن نوح بل راحوا يستهزؤن به وبعمله هذا فحدثنا القرآن عن ذلك.

* (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون) * (٣)

سياسة مماثلة سخرية بسخرية فهم يسخرون من نوح لأنهم يجهلون ما يعمل وهو يسخر منهم لأنه يعلم ماذا سيحل بهم وكم فارق بين السخريتين، ومرت السنين ونوح يصنع بالسفينة ويعمل بها ليلا ونهارا كما كان يدعو قومه ليلا ونهار حتى إذا أكمل الصنع وتهيأ لأمر الله.

* (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل) * (٤)

خطاب جديد لنوح ليحمل في سفينته من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول وسار خلف شهواته فهو من المغرقين لا محالة فتوجه إليهم نوح (عليه السلام).

---

(١) نوح: ١ - ٢٨.
(٢) هود: ٣٧.
(٣) هود: ٣٨.
(٤) هود: ٤٠.

* (وقال لهم اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم) * (١) فركبوا بها وأخذ الماء يتدفق من كل حدب وصوب من الأرض والسماء حتى صار كالجبال * (ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) * * (قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهم الموج فكان من المغرقين) *

هذا النص الذي اختلطت فيه مشاعر الأبوة الحنينة مع أهداف الرسالة الكبيرة واختلطت فيه العواطف الأبوية الصادقة لنوح مع الأفكار السماوية الحقة حتى وصل الأمر إلى أن ينادي نوح ربه في ابنه مع عدم علمه بفعله وما أن أبلغه الله تعالى بما يعمل ابنه خضع نوح إلى رسالته وأفكارها السماوية فقال:

* (قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) *

وانتهت القصة باستواء السفينة على الجودي ذلك الجبل الذي بث الحياة في الكون من جديد وهرعت الخلائق من سفينة نوح لتبدأ مسيرة جديدة ودورة حياة جديدة ليسلم نوح في هذه الدورة الرسالة إلى وصي من أوصياء الله وسنتكلم عن الوصية في بحث مستقل لكل أنبياء الله لأنها الخطوة المهمة في حفظ الرسالة وتثبيتها وفي نهاية القصة فلا بد من أن يكون ختامها مسك بحديث عن أبي جعفر (عليه السلام) فالحديث

علي بن إبراهيم عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن محمد بن الفضل عن أبي حمزة عبد أبي جعفر (عليه السلام)..... إن نوح (عليه السلام) لما انقضت نبوته واستكملت أيامه

أوحى الله عز وجل إليه أن يا نوح قد قضيت نبوتك واستكملت أيامك فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة في العقب من ذريتك...

وبشر نوح ساما بهود (عليه السلام)، وكان فيما بين نوح وهود من الأنبياء (عليهم السلام)، وقال نوح إن

الله باعث نبيا يقال له هود وأنه يدعو قومه إلى الله عز وجل فيكذبونه والله عز وجل مهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤمن به وليتبعه فإن الله عز وجل ينجيه من عذاب الريح.... (٢).

---

(١) هود: ٤١.

(٢) فروع ج ٨ ص ١١٦ عن ميزان الحكمة ج ٩ ص ٣٨٥ ح / ١٩٢٩١.

* * *

" هود "

* (وإلى عاد أخاهم هودا) * (١)

حدثنا القرآن الكريم عن فصل جديد من فصول الحياة المتنوعة الأطوار المتعددة الأساليب منهجا وعملا، فلكل مجتمع خصوصية يتمتع بها قد يفقدها المجتمع الآخر إذا فلا بد من دراسة المجتمعات وفق نظرية طبيعة الأشياء هذه النظرية التي لحد الآن لم أجد من وضع أسسها وأركانها وشيد مبانيها التحتية لتدرس من خلالها المجتمعات، نعم أشير إليها هنا وهناك في بعض الموارد (٢) وملخص هذه النظرية: أن تدرس الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الخاصة بكل مجتمع ثم بعد ذلك الحكم عليه من مختلف الزوايا المطلوبة للدراسة، ونحن نرى أن لهذه النظرية مماثل في السنن الإلهية الحتمية التي لا تقبل التغير والتبدل مثلا:

* (وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) * (٣)

فالاستقامة مقدمة لا إنزال الماء من السماء لا تقبل التغير ولا التحويل سنة جرت عليها الخلائق ونحن لا نريد أن نقول إن طبيعة الأشياء هي النظرية التي نطق بها القرآن لما فيها من الفرق بين السنة الحتمية وقانون العلية وبين الدراسة العامة للمجتمعات فهذا تحميل للقرآن ونحن لا بد أن نتحمل من القرآن ونتزود لا نحمله أفكارنا وآرائنا بل نقول أن المجتمع إذا وضع تحت الدراسة الدقيقة والفحص الشامل نسبيا يمكن أن يخرج الباحث بنتائج دقيقة ومفيدة في تحديد المواقف المستقبلية والأوضاع الراهنة هذه شقشقة هدرت وأتمنى أن تستقر في دراسة مستقلة حتى

---

(١) هود: ٥٠.

(٢) علوم القرآن، محمد باقر الصدر ألقاها السيد محمد باقر الحكيم ص ٩ - ١٢.

(٣) الجن: ١٦.

يعرف القارئ أن دراستنا للمجتمعات وفق هذه النظرة.
فنعود إلى هود وإلى قومه لنلقي نظرة على تلك المجتمعات التي عاشت ما قبل التاريخ ونرى كيفية أساليب المواجهة بين الفريقين بين هود وقومه.
صفات قوم هود
تمتع هذا المجتمع بميزات لم تتمتع بها مجتمعات الأنبياء من قبل على حد علمنا بذلك ووصف لنا القرآن الكريم ذلك المجتمع ومواصفاته ونحن نتبع السياق القرآني في ذكر تلك المواصفات.
الصفة الأولى
(تقدم ورقي في المدينة)
قال تعالى في خصوص هذه الصفة:
* (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد) * (١)
هذه الكلمة كافية في معرفة التقدم والرقي في كل المجالات التي يعيشونها فهي كلمة صادرة من الحق تعالى وتعبر عن منتهى الحقيقة الواقعة فهو يقول
* (لم يخلق مثلها في البلاد) *
نعم وحضارة ورقي وتقدم لا يوجد مثله في تلك الحقبة الزمنية من التاريخ تمتع به قوم هود وذكرهم هود (عليه السلام) بهذه النعم في دعوته عندما قال لهم: -
* (واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون) * * (أمدكم بأنعام وبنين) * * (وجنات وعيون) * (٢)
الصفة الثانية
(القوة والبطش الشديد)
هذه الصفة التي بها ترفع المجتمعات وبها توضع ترفع إذا استغلت وتوضع إذا أهدرت، فهؤلاء كانوا أصحاب قوة رادعة وبطش ليس بالهين فقال لهم نوح في

---

(١) الفجر: ٥ - ٨.
(٢) الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤.

ذلك.
* (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) * (١)
وكذلك رغبهم في دعوته بازدياد قوتهم فقال لهم: -
* (ويزدكم قوة إلى قوتكم) * (٢) فهذا يدل على إنهم كانوا أصحاب قوة وبطش شديد
لم يكن لغيرهم مثله.
الصفة الثالثة
(طول الأجساد)
المظهر الخارجي للإنسان له مدخلية في معرفة المحتوى عادة أي مقدار القوة التي يحملونها فهؤلاء كانوا يتمتعون بأجساد طويلة جدا ذكرت الروايات مقدارها ونحن نضرب عن ذلك بذكر القرآن فقط لأن تلك الروايات روايات ما قبل التاريخ يضعف الاعتماد عليها، أما القرآن فقال في ذلك.
* (إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر) * * (ينزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) * (٣)
فهذا الوصف * (نخل منقعر) * يوصف أجساد قوم هود وما يتمتعون به من تلك المواصفات الخاصة التي انفردوا بها.
الصفة الرابعة
(البسطة في الخلق)
* (وزادكم في الخلق بسطة) * (٤)
هذه هي الصفة الأخرى التي تمتع بها قوم هود (عليه السلام) وهي البسطة في الخلق المستلزمة لزيادة القوة والشدة ومن هنا يظهر إنهم كانوا ذوي حضارة وتقدم وصيت في البأس والقوة والقدرة (٥) فذكرهم هود (عليه السلام) بهذه النعم علهم يتعضون ويعودون إلى
صوابهم وإلى جادة الحق.

---

(١) الشعراء: ١٣٠.
(٢) هود: ٥٢.
(٣) القمر: ١٩ - ٢٠.
(٤) الأعراف: ٦٩.
(٥) الميزان: ٨ ص ١٨٢.

ما الذي يريده هود؟
لا بد من الهدف وإلا كانت الدعوة إلى الله غامضة لهود فضلا عن قومه فما هو الهدف
الذي سعى إليه هود؟ وماذا أراد أن يوجد في مجتمعه؟ لنقرأ القرآن ونسأله فهو الناطق الرسمي بذلك فلا بد من استنطاقه لمعرفة الأهداف التي توخى هود إيجادها في مجتمعه فقال عز من قال:
* (وإلى عاد أخاهم هودا) * (١) من نفس القبيلة ومن نفس الجنس بالمواصفات المذكورة سابقا - فلماذا أخاهم؟ لماذا لا يكون من قبيلة أخرى؟ فلذلك فائدة وحكمة، لعل الحكمة والله العالم أن هود أعلم من غيره بمجتمعه وقومه فهو الذي يشخص الطرق والوسائل الصحيحة في المواجهة لما يعرف منهم من عادات وتقاليد وأمور أخرى تجعله قادرا على المواجهة والانتصار وغيرها من الحكم التي لا يعلمها إلا الله تعالى.
ونعود إلى طلبات هود من مجتمعه، فيا ترى هل هي طلبات شخصية ذاتية لخدمة مصالحه الخاصة أم لا طلبات إلهية بمستوى الرسالة التي يحملها ويبلغ بها فلا بد أولا من ذكرها.
الطلب الأول
(العبودية)
* (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره وإن أنتم إلا مفترون) *
عبادة خالصة لله تعالى تنبع من قلوبكم توحدون بها خالقكم، وتنفون بها كل مظاهر الشرك السائدة في المجتمع، والسر في تفرده بالعبودية لأنه لا يوجد إله غيره، والذي تعبدونه من الأصنام افتراء على الله ما هي آلهة بل هي أصنام أنتم نسجتموها في أذهانكم وجسدتموها خارجا فذروها وتعالوا معي إلى الحق القيوم إلى القوة القاهرة إلى رب الكون ومسبب أسبابه وما أصنامهم إلا كالتراب بالنسبة إلى رب الأرباب فهذا هو الطلب الأول ليس لهود فقط بل لكل أنبياء الله تعالى كما اتضح من

---

(١) هود: ٥٠.

البحث السابق وسيتضح من خلال دراستنا هذه، ومن المعلوم أن هذا الطلب ليس فيه مكسب مادي لهود بل دعوة خالصة لرضى الله تعالى وتبليغا برسالته.

الطلب الثاني

(الطاعة)

* (فاتقوا الله وأطيعون) * (١)

الأنبياء جميعهم يركزون على هذا المطلب فلماذا هذا الاهتمام بهذا الأمر إلى هذا المستوى؟ لماذا يطيعون الرسول؟ ألم تكفي عبادة الله؟

الجواب على ذلك واضح لأن الرسول هو المدل على الله تعالى وهو السائق إلى الله فلا بد من إطاعته كما يقول.

* (فاتقوا الله وأطيعون) * وكذلك للقيادة الواحدة دور كبير في التوجيه والنصح فلا بد من الالتفاف حول الرسول حول شخصية واحدة وقيادة واحدة مركزية في إصدار القرار فإن للقيادة دور كبير في توجيه المجتمع والسير به إلى التكامل وبالذات إذا كانت القيادة واحدة لا قيادات متعددة كل منها تجر النار إلى قرصها، وأكدت الروايات على ذلك أن لله في كل زمان خليفة لا خلفاء متعددين.

الطلب الثالث

(الاستغفار والتوبة)

فقال لهم * (ويا قوم استغفروا ربكم) * (٢) اطلبوا المغفرة من الله تعالى على ما سلكتم

من طرق ملتوية أدت بكم في النتيجة إلى أن تعبدوا أصنام لا تنفع ولا تضر، عودوا إلى بارئكم وإلى الحق تعالى، وتوبوا إليه توبة نصوحة تقلعوا بها كل جذور الشرك والانحراف عن نفوسكم حتى تتطهروا وتكونوا على استعداد كامل لتحمل نعم الله

---

(١) الشعراء: ١٢٦.

(٢) هود: ٥٢.

تعالى، فإن السماء تمنع بركاتها والأرض تدفن خيرتها إذا عصي الله في أرضه فاستنزلوا الماء باستغفاركم وأخرجوا كنوز الأرض بتوبتكم وازدادوا قوة بتوجهكم الخالص إلى الله تعالى.

* (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) * (١)

هذه هي الطلبات التي أرادها هود من مجتمعه فهي تجلب لهم الخيرات المادية والمعنوية وتعزهم وترفعهم وتؤصل جذور الحق فيما بينهم وتنصرهم على عدوهم حيث تزيدهم قوة إلى قوتهم، فماذا كان جواب القوم على ذلك؟ وما هي الردود التي واجه القوم بها هود عندما طلب منهم ذلك، وإن صح التعبير ما هي وسائل المواجهة التي رفعها القوم في وجه هود (عليه السلام).

وسائل القوم

أولا: - إنكار البينة

* (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) * (٢) فهذا الجواب الأول الذي تحدى القوم به هود فهم

يقولون له نحن لا نسلم لك فيما تقول لأن دعوتك إلى الله خالية من البينة والحجة الدامغة التي تجعلنا مستسلمين لك غير معاندين، فما هي الحجة والبينة التي تحملها ، وفي الحقيقة أنهم أغفلوا عن الحجة والبينة وإلا هي ظاهرة من خلال تحديه لهم ولمواقفهم ولأصنامهم وسنبين ذلك في جواب هود على هذا الإنكار.

ثانيا: - التمسك بعادات السلف

---

(١) هود: ٥٢.

(٢) هود: ٥٣.

* (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فاتنا بما تعدنا أن كنت من الصادقين) * (١)

هذه المشكلة التي تواجه الأنبياء كافة وليس هود وحده، هذه هي النظرة الضيقة التي تضيق بأصحابها فكيف بالآخرين، فهم يقولون لهود نحن نتمسك بما وجدنا عليه آباؤنا ولا نتركه حقا كان أو باطلا ولن نعبد إلها واحدا تدعو له بل نبقى على ما نحن عليه من التفرقة في الأفكار والقيم والعقائد ولن نجتمع تحت إله واحد نعبده ولا نؤمن بك أبدا مهما كلف الأمر حيث قالوا له:

* (وما نحن لك بمؤمنين) * فهذه المواجهة التي تنم عن ضيق في الفكر وقلة في الوعي، فهم يتمسكون بأمور لم يقيم عليها دليل أو برهان بل قام البرهان والدليل على عدمها.

ثالثا: - اتهامه بالجنون

* (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) * (٢)

أطراف المواجهة عند المقابلة بالأدلة يحاولون البحث عن خلل في مقدمات الدليل حتى ينتصروا لما يدافعون عنه أما هؤلاء واجهوا نوح باتهام ليس له مقدمات سابقة لكي يصرفوا الأنظار عنه لما يقول وإلا لو واجهوه بنفس الأسلوب الذي يواجههم به لألقموا حجرا وهم يعلمون بذلك جيدا ففضلوا أن يكيلوا له التهم التي لا سبيل لمواجهتها بطرق وأساليب سليمة ومنطقية.

رابعا: - اتهامه بالسفاهة والكذب

---

(١) الأعراف: ٧٠.

(٢) هود: ٥٤.

* (إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين) * (١)
السفاهة الخفة لغة أي إنا نراك خفيفا في أفكارك وآرائك ظنا منهم إنها من عنده فهم لم يقطعوا بأنه كاذب ولكن رموه بالسفاهة فلاحظ قولهم * (إنا لنظنك من الكاذبين) * فنحن لا نجزم بكذبك ولكن مع هذا لا نتدبر الأمر ونسير خلفك بل أنت إنسان سفيه - حاشاه ثم حاشاه - فيك خفة وعدم تروي فيما تدعو وتقول هذه المواجهة تؤلم من كان له لب فكيف بهود النبي المرسل من الله تعالى كيف به وهو يواجه هذه الحثالة من البشرية التي لا تريد أن تصدق بما يقول بل لا تريد أن تذعن إلى ما يقول.

خامسا: - التغرير بعامة الناس

* (ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) * (٢)
هذه العبارة قالها المترفون من قوم هود (عليه السلام) أرادوا بها إظلال قومهم وعامة البشر فهم
يركزون على ما هو في نظرهم الأول والأخير، المأكل والمشرب، ولم يركزوا على شئ غيره فقالوا لهم ما هو إلا بشر يحمل مواصفات البشرية التي تحملونها من الأكل والشرب، فهم لم ينظروا إلى ما متعهم الله به، وميزهم عن الحيوان به، وهو العقل، واتباع الحق والحجة القاطعة بل راحوا وراء ما يؤمنون به من الملذات الدنيوية الفانية وأخذوا بالإظلال لعامة البشر في عدم تصديق دعوة هود (عليه السلام).
وبعد هذا العرض للتهم التي وجهت إلى هود (عليه السلام) لنرى ما هو الموقف والسياسة
المتبعة من هود اتجاه هذه الوسائل لأنه هو الطرف المقصود من ذلك كله فجاء دور هود في تبيان الحقائق وإبطال الفتن التي أثاروها إمام دعوته، ورده على هذه التهم وما ألصقوه به، ما هو إلا إيضاح للحق وإبطال للباطل وليس طلبا منهم لأن يكونوا

---

(١) الأعراف: ٦٦.
(٢) المؤمنون: ٣٣.

مطيعين لأنهم قدموا لهود موقفهم وهو إنهم لن يؤمنوا به سواء وعظهم أم لم يعظهم * (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) * (١)
هذا هو موقفنا من الرسالة التي تحملها هود، فجاء دور هود ليبين لهم الموقف المقابل.
وسائل هود (عليه السلام) في المواجهة
أولا: البراءة مما يعبدون
" قال إني أشهد الله واشهدوا أني برئ مما تشركون " (٢)
هذه هي الوسيلة الأولى التي رفعها هود بأنه برئ من كل ما يعبدون من الأصنام ليؤكد لهم أحقية عبادة الله وحده ويؤكد لهم صدقه مع نفسه في دعوتهم إلى الله تعالى، فأنا برئ من كل ما تعملون، عقيدة وعملا حتى لا يبقى مجال لكم في استمالتي إلى ما تعبدون من دون الله، فهو يقدم شهادة الله على نفسه بأنه برئ من كل ما يفعل قومه وما يشركون به.
ثانيا: - إظهار البينة
* (فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون) * (٣) فهو يجيب على سؤالهم حيث قالوا له أنك لم

---

(١) الشعراء: ١٣٦.
(٢) هود: ٥٤.
(٣) هود: ٥٥.

تظهر في دعوتك أي بينة تذكر فقالوا له * (ما جئتنا ببينة) * (١) فهذه البينة التي يرفعها هود (عليه السلام) في وجه قومه إلا وهي التحدي الصارخ لهم ولأصنامهم، فإذا كانت لأصنامكم رمق من الحياة قادرة على أن تفعل بي شيئا فلتفعل فأنا أتحداها وأتحداكم أيضا وهذا التحدي نابع من قوة الرسالة والإطار العام الذي يترك فيه نبي الله هود (عليه السلام).

ثالثا: - التوكل على الله

* (إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) * (٢).

فهذا تحد آخر بأنه يتوكل على الله، وهم يتوكلون على أصنامهم فأي التوكلين أقوى فهو يعتمد على إله واحد ورب واحد وخالق واحد وهم يعتمدون ويتوكلون على أرباب متفرقين أحدهما يجهل الآخر لا يجلبون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فضلا عن أن يجلبوا النفع للذين يعبدونهم. فهو يتحداهم بهذا الكلام بأن الله تعالى آخذ بناصية كل دابة وأنه على صراط مستقيم في أمره.

رابعا: - تذكيرهم بالنعم الإلهية

* (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) * (٣)

فها هو يذكرهم بالنعم الإلهية في جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح الذين أغرقهم الله وطهر الأرض من رجسهم فلا بد أن يتحملوا هذه الخلافة بأمانة ويؤدوا حقها في

---

(١) هود: ٥٣

(٢) هود: ٥٦.

(٣) الأعراف: ٦٩.

طاعة الله وعبادته وأن لا يعيدوا الكرة التي أحلت بقوم نوح، وكذلك يذكرهم بما أعطاهم الله من مواصفات خاصة جعلتهم يتمتعون بها ويتميزون عن بقية الشعوب بذلك. فيا قوم لا يأخذكم الغرور والطيش وتكفروا بهذه النعم الإلهية فخذوا حذركم من بطش الله تعالى بالقوم الكافرين.

خامسا: - نفي التهم الموجهة إليه

لم يدخر القوم في مجابهتهم مع هود وسيلة كان باعتقادهم أن تؤدي إلى إضعاف هود في المواجهة ولم يفعلوها، فكالوا له التهم المتعددة من الجنون تارة والكذب أخرى والسفاهة ثالثا ولكن هود لم يقف أمام هذه التهم مكتوف الأيدي بل ردها جميعا بأسلوب الحوار والمواجهة في الكلام تارة وبالتوجه إلى الله أخرى في نصره عليهم فقال:

* (قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين) * (١) فأنا رسول الله إليكم لأنقذكم من الظلال والعمى والتخبط في هذه الدنيا وأنتصر بكم لله لا لنفسي فهذه ليست سفاهة فالسفيه من اتبع شهواته وترك عقله جانبا وأنا أدعوكم بالحجة القاطعة والبرهان الواضح فما لكم لا تؤمنون بي، وأخذ يرد التهم الموجهة إليه من قبلهم.

وأخيرا وبعد هذه الرحلة الطويلة مع نبي الله هود وقف القوم موقف المتصلب الذي لا يريد أن يذعن للحق، بل اختاروا الطريق الذي رسمه إليهم آباءهم والذين سبقوهم بالانحراف، فلم ينفع النصح الذي قدمه هود (عليه السلام) لهم بل زادهم تصلبا لأن

الخير إذا وضع في غير محله لن يزيد ذلك المحل إلا شرا فكلما زاد هود في دعوته زاد القوم في تصلبهم حتى أعلنوا أنهم لن يؤمنوا به فقالوا له:

* (وما نحن لك بمؤمنين) * (٢) وبعدما علم هود من القوم أنهم لن يؤمنوا له قال لهم أنا

أبلغت رسالات ربي إليكم إن أطعتم فلكم وإن عصيتم فعليكم وما أنتم بضارين لله تعالى فسوف يستبدل قوما غيركم كما بدل قوم نوح بكم، فرسم لنا القرآن ذلك فقال:

---

(١) الأعراف: ٦٧.

(٢) هود: ٥٣.

* (فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضروه شيئا إن ربي على كل شئ حفيظ) * (١)
إلى هنا حق العذاب على هؤلاء، حق العذاب عليهم لما استكبروا به في الطاعة لله تعالى بعد الحجج والبراهين الساطعة التي لا تقبل الشك والجدال، عند ذلك توجه هود إلى ربه توجه وهو يحمل مشاعر الرسالة وعواطف الخوف على قومه توجه إلى القول الفصل والكلمة الحقة فقال:
* (قال ربي انصرني بما كاذبون) * (٢)
فجاء الجواب الإلهي مباشرة ليطمئن هود بأن الله معه في كل لحظة من لحظات الدعوة إلى الله فماذا كان الجواب؟
* (قال عما قليل ليصبحن نادمين) * (٣)
سيندمون على كل ما واجهوك به من وسائل وتهم وافتراءات وتمسك بقيم وتقاليد لم ينزل الله بها من سلطان، وأخيرا طلبوا العذاب بألسنتهم عندما قالوا له:
* (فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) * (٤)
فأجابهم هود عندها بأن الله وحده هو العالم بذلك وهذا الأمر بيده.
* (قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون) * (٥)
إذا جاء العذاب الذي كان ينتظرونه طويلا جاءت السنة الإلهية الحتمية التي لا تقبل الرد ولا التبديل جاءت النتيجة التي أبدع قوم هود في تهيئة المقدمات لها.
* (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم) * * (تدمر كل شئ بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين) * (٦) هذه هي النتيجة التي يقف الباحث أمامها موقف الصمت لأنها تنطق بمعاني تعجز الألفاظ أن تعطيها حقها، ريحا تدمر كل ما هو أمامها لتكتسح تلك الحفنة التي عجز هود عن هدايتهم وتطوي صفحة أخرى من سجل الحياة الحافل بهذه القصص العجيبة وتترك للمتأمل القارئ درسا في تحديد مواقفه الراهنة والمستقبلية حتى يبعد عنه ما أحل بقوم هود (عليه السلام) من الدمار والخزي
في الدنيا والآخرة.

---

(١) هود: ٥٧.
(٢) المؤمنون: ٣٩.
(٣) المؤمنون: ٤٠.
(٤) الأعراف: ٧٠.
(٥) الأحقاف: ٢٣.
(٦) الأحقاف: ٢٤ - ٢٥.

القرآن يحدد المواقف

ولا يترك القرآن الكريم القصة تمر بدون تعليق وتحديد لمواقف قوم هود بل راح يبرئ ساحته مما حل بعاد، فإنه من أيديهم، فهم الذين جحدوا بآيات ربهم واستكبروا على الله وعصوه ولم يطيعوه في أوامره ثم عصوا رسوله هود إليهم بعد ما أقام لهم البينات ووضح لهم الخافيات واتبع معهم كل الوسائل المنهجية والعلمية فلم يطيعوه بل عصوه وراحوا يبحثون وراء ضلالاتهم عن وسائل الانحراف لتوقف هود عن المواجهة فحدثنا القرآن عن ذلك كله فقال عز من قال: * (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد) * * (واتبعوا في هذه لعنه ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود) * (١) فالأسباب التي حصل من وراءها عاد على اللعنة الدائمة في الدنيا والآخرة هي:

١ - الجحود بآيات الله تعالى

٢ - عصيان الرسل

٣ - اتباع الباطل والسير خلف الجبارين المعاندين لرسالات الله تعالى، فحدد لنا القرآن الكريم هذه الأسباب لتكون درسا للشعوب في التعامل مع الرسل الإلهية ومع نعم الله تعالى عليهم ليتجنبوا الكوارث الإلهية وعذاب الاستئصال الذي لا مفر منه.

* * *

---

(١) هود: ٥٩ - ٦٠.

صالح وثمود
صفحة جديدة من صفحات التاريخ يقلبها لنا القرآن الكريم مجردة عن الزمان والمكان، يقلبها لنا بقوالب لفظية تصور لنا حقيقة واقعة ما قبل التاريخ، حقيقة قوم كانوا يعيشون في واد من الأودية أبدعوا في عمارته وبناءه، وتوسعوا في مدنيته وعمرانه وبعبارة أخرى أحسنوا في إخراج المظهر بالشكل الجميل وأخطأوا في إصابة المحتوى الحقيقي في كدحهم هذا فأرسل الله تعالى لهم صالحا لكي يكمل عمرانهم ويحكم قواعدهم ويوصل جذورهم فجاء بصوت الرأفة والرحمة إلى قومه ، جاء بعبارة (يا قومي).
كم تحمل هذه العبارة من دلائل وإشارات نابعة من القلب الذي ينادي بها فقال لهم:
* (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب) * (١)
فأنا لا أريد منكم إلا أن تقولوا لا إله إلا الله، وحدوا الله في أرضه، وحدوا الذي خلقكم وجعلكم خلفاء من بعد قوم عاد.
* (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد) * (٢) فيا قومي استغفروا الله وتوبوا إليه إنه قريب يسمع دعوة من دعاءه يجيب من ناجاه ولا تتكبروا عليه، هو الذي خلقكم من الأرض، وجعل عمارتها بأيديكم، فتوبوا إلى الله تعالى لعلكم تفلحون.
وركز في دعوته على الهدف الذي حمله على دعوتهم ألا وهو رضا الله تعالى بعيدا عن كل المكاسب المادية التي غرقوا فيها ولا يرون شئ إلا من خلالها.
* (وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين) * (٣)
فأنا إليكم مرسل لنعبد الله معا ونشكره على نعمائه فهو الذي بوأنا في الأرض لنتخذ من سهولها قصورا نحمي بها أنفسنا من شرور الدنيا فلا بد أن نتخذ قصورا نحمي بها أنفسنا من شرور الآخرة وما قصور الآخرة إلا عبادة الله تعالى وذكر نعمه التي

---

(١) هود: ٦١.
(٢) الأعراف: ٧٤.
(٣) الشعراء: ١٤٥.

أنعمها علينا فقال لهم * (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) * (١)
فهو يذكرهم بشكل تفصيلي بنعم الله تعالى عليهم ابتداءا من جعلهم خلفاء ومرورا بالنعم المادية التي يتنعمون فيها فعندما أراد أن يختم النعم وجدها لا تعد ولا تحصى فأجمل بالآية المذكورة.
* (فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) * (٢)
أجمل النعم لأنه لا يستطيع أن يعدها، أجمل لكي تستوعب كل نعم الله على خلقه.
إلى هنا أتم صالح دعوته بهذه الوسائل المذكورة كبداية لفتح الحوار معهم فهو ينتظر الرد منهم على ما بلغ به إليهم فيا ترى هل يستجيبوا له بسلام من دون مقاومة أم لا ؟ سيصروا ويستكبروا على ما سار عليه قوم نوح وهود فلننظر ما هي النتيجة،
النتيجة واضحة إنكار وتكذيب وتهديد ووعيد واتهامات وافتراءات فلنفصلها واحدة بعد الأخرى بعنوان..
وسائل ثمود في المواجهة
أولا: - تشكيك المؤمنين بصالح

---

(١) الأعراف: ٧٤.
(٢) الأعراف: ٧٤.

* (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالح مرسل من ربه) * (١)
مع المترفين والمنعمين ثانيا الذين وقفوا للرسل وقفة واحدة - وإن اختلفت الوسائل - بكل ما يملكون من طاقات وإمكانات سياسية تارة واجتماعية أخرى واقتصادية ثالثة واليوم يواجهون صالح (عليه السلام) بشيطنة جديدة تكمل وسائلهم الشيطانية الأخرى ألا وهي تشكيك المستضعفين بأمر الرسالة، عن طريق إثارة التساؤل أمام هؤلاء الذين آمنوا بصالح، لكي يضعفوا في نفوسهم أمر الرسالة والمرسل إليهم ولكن هيهات هيهات لأن المستضعفين لم يكونوا سذجة بمستوى الملأ المواجه بل كانوا بمستوى الرسالة التي حملوها فكان جوابهم:
* (قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون) * (٢)
فلم يجد الملأ بدا من الكلام بعد هذه المواجهة الرائعة من أصحاب صالح (عليه السلام) الذين
قطعوا كل الشكوك التي تثار حولهم في أنهم اتبعوا صالح (عليه السلام) بدون روية وتفكر بل
اتبعوه بإيمان قلبي حقيقي نابع من إيمانهم بالله تعالى، فعندما لاحظ الملأ هذا الجواب لم يملكوا حوارا آخر بل واجهوهم بالعصبية القبلية المعروفة عند المستكبرين.
* (قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون) * (٣)
كافرون بلا دليل ولا حجة، كافرون بالذي آمنتم به أنتم، فكيف تكون العصبية والقبلية والهمجية التي يستنكرها من كان له أدنى لب.
ثانيا: - كلمة حق يراد بها باطل
* (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) * (٤)
مرجوا في كل أمر في الرخاء والشدة وفي السراء والضراء هذا حق قالوه ولكن لماذا لا تتبعونه إذا كان مرجو فيكم؟ إنها كلمة حق أرادوا بها أن يثيروا الجانب

---

(١) الأعراف: ٧٥.
(٢) الأعراف: ٧٥.
(٣) الأعراف: ٧٦.
(٤) هود: ٦٢.

الاجتماعي في شخصية صالح وأن لا يفرط في هذه المكانة وهذا التقدير عندهم ويتراجع عما يعتقد به من الدعوة إلى الله تعالى ولكن صالح (عليه السلام) في هذه اللحظة
رجع إلى ربه وإلى ما يعتقد من الأفكار وأجابهم بأن التقدير لا بد أن يكون أولا من الله ولا تقدير من دونه فإذا أراد الله أن يرفع عبدا رفعه وإن اتفق الآخرون على وضعه فقال لهم:
* (يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير) * (١)
دعوتكم هذه عصيان لله تعالى ولا تزيدونني إلا خسارة إذا اتبعتكم وسرت خلفكم، فتعالوا إلى الله تعالى نذهب سوية، إلى الحق المطلق والرحمة الأبدية، فأجابوه بالتمسك القبلي والذهنية المتحجرة على عادات السلف.
* (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب) * (٢)
فإذا كان آباءنا يعبدون الأصنام فكيف نترك ذلك ونتبعك يا صالح؟
ثالثا: - التشاؤم من صالح وأصحابه
ضل صالح يدعو قومه أياما وليالي واستمرت دعوته طويلا فلم يؤمنوا به فأصابهم قحط المطر فلم تهطل الأمطار على أوديتهم مدة مديدة فمنعت السماء بركاتها، فهذه علامة من علامات الإنكار والجحود والاستكبار ولكنهم لم يتعضوا من ذلك بل راحوا يحاربون صالح بوسيلة جديدة ألا وهو التشاؤم من نبيهم ومما يدعوهم إليه.
* (قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون) * (٣)
يا صالح لقد تشاءمنا منك وممن معك من المؤمنين لما أصابنا من قحط المطر والجوع، فهذا الشر منك ومن دعوتك، فأجابهم صالح بروح إيمانية لا تعرف لهذه الأفكار طريقا جليا، إلا بعبادة الله تعالى والسير خلف رسله فقال لهم: هذا القحط أتاكم من عند الله تعالى وهذا بلاء وفتنة لكم واختبار ليرى كيف تصنعون، وبدلا من أن يبدلوا طريقتهم في التعامل مع رسالات الله راحوا يخططون لقتل الرسول المرسل

---

(١) هود: ٦٣.
(٢) هود: ٦٢.
(٣) النحل: ٤٧.

إليهم.
رابعا: - طلب البينة
* (ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين) * (١)
هذه المواجهة واضحة لدى الرسل ومخطط لها مسبقا لأنها تتكرر من المستكبرين والمترفين، وتكلمنا عنها سابقا عندما بحثنا مع نوح طبيعة مجتمعه، فهي وسيلة متكررة والسبب في تكررها - من وجهة نظرنا - أن فيها مقدمات بديهية ونتائج وصلوا إليها عن طريق المغالطة، أما جانب البديهية فيها هو بشرية الرسل فهم ليسوا بملائكة ولا عقول مجردة بل هم من أبناء البشر يأكلون ويشربون مثلما يأكل ويشرب غيرهم أما النتيجة التي يتوصلون إليها من خلال ذلك في أنه لا يجب اتباع من كان من جنس البشر فهذه مغالطة لأن الرسول وإن كان من جنس البشر ولكن يتمتع بمواصفات يفقدونها ولا يملكونها تجعل منه قائدا ومنهم مقودين إليه، ثم طلبوا بعد ذلك أن يأتيهم بآية ليصدقوه فقالوا له:
* (فأت بآية إن كنت من الصادقين) * فأجابهم بأنه يحمل البينة إليهم، فإذا وجدت البينة فلا سبيل للإنكار والجحود بعد ذلك.
* (قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) * (٢) فتقاسمت هذه الناقة الماء معهم يوما لها لترويهم من لبنها شرابا طيبا لذيذا ويوما لهم ليعقروها ويعتدوا على ما خطه الله إليهم، فلماذا هذا العقر؟ ما هو إلا ضيق الأفق وحقارة الأنفس وخسة الضمير جعلتهم يعقروها وهي تسالمهم ويضربونها وهي تروي ضمأهم.
خامسا: - طلب العذاب
* (فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح آتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) * (٣)

---

(١) الشعراء: ١٥٤.
(٢) الشعراء: ١٥٥.
(٣) الأعراف: ٧٧.

يا لها من وقاحة تمدهم باللبن الطيب ويمدون إليها أيديهم بالغدر والخيانة فبعملهم هذا تحدوا الرسالة بما فيها من معجزات ليبطلوا كل ما بلغ به صالح من عبادة الله وإطاعة رسله ولكن أنى لهم هذا! فهم لا يعلمون الطرف الآخر جيدا إنه الله تعالى خالق الخلق ومدبر أمره، فعقروها وجاءوا إلى صالح وقالوا له:

* (آتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين) * (١)

فلم يتركوا حدا إلا تجاوزوه، عندها حقت عليهم كلمة العذاب وتمت مقدمات السنة الحتمية التي لا تبديل لها ولا تغيير فأنبأهم صالح (عليه السلام) بذلك * (فقال تمتعوا في

داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) * (٢)

كلوا واشربوا وتمتعوا ثلاثة أيام لا أكثر، بعد ذلك يفلج الحق ويزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا

* (فلما جاء أمرنا) * فلج الحق واقترب من الذين ظلموا ليدمر عليهم ما بنوه من بيوت مادية وأفكار خاوية ويحقق لصالح وأصحابه الوعد الذي وعدهم إياه * (فلما جاء أمرنا نجينا صالح والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز) * (٣)

جاء الحل الإلهي لينجي صالح والذين آمنوا معه ويدمر الذين كفروا به وبرسالته فصور لنا القرآن الكريم ذلك المشهد بصور تهز المشاعر وتضطرب لها العقول فقال:

* (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم إنا دمرناهم وقومهم أجمعين) * (٤)

دمار ليس مادي فقط وليس لهم فقط فهو مادي ومعنوي ولهم ولمن يأتي من بعدهم ويكذب برسالات الله ولكن الفرق بالنسبة لهم هو دمار فعلي ولغيرهم دمار مؤقت معلق بحلول الأجل والتكذيب.

هذه هي وسائل القوم في مواجهة صالح (عليه السلام) وهذه هي نتائجها دمار كامل وخزي

في الدنيا والآخرة.

سادسا: - التخطيط لقتل صالح (عليه السلام)

---

(١) الأعراف: ٧٧.

(٢) هود: ٦٥.

(٣) هود: ٦٦.

(٤) النمل: ٥١.

* (وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون) * * (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون) * (١)
نحن لا نريد أن نذكر أسماء هؤلاء لا للجهل بهم وإنما هدفنا من البحث ليس هو الرد بقدر ما هو تحديد لمواقف مضت لتكون درسا في التعامل الآني والمستقبلي مع الوقائع والأحداث، فها هم يخططون لقتل نبيهم غدرا وغيلة متناسين كل الأعراف والتقاليد من حفظ الأخ وعدم الغدر به، فهم يتمسكون بتقاليد الآباء عندما يعبدون الأصنام، ولكن لا يتمسكون بعادات البشر في حفظ الأخ وعدم الغدر به، فهؤلاء الرهط الذين وصفهم القرآن بالفساد والإفساد تحالفوا بالله فيما بينهم لإضمار صوت الحق وإيقاف الزحف الذي يدعو إلى التغيير والتبديل ظنا منهم أن بقتل صالح يخمد الحق ويظهر ما يعتقدون به من الآراء والأفكار الباطلة ولكن هيهات ما صالح إلا حلقة من حلقات السلسلة الممدودة من السماء إلى الأرض ابتداء بآدم (عليه السلام) وانتهاءا بسيد الخلق محمد (صلى الله عليه وآله)، وحتى لو انتهت النبوة فالخلافة
باقية لتكمل الشوط إلى الله تعالى ولذلك كلام سنذكره في الفصل اللاحق إن شاء الله تعالى.
فنعود إليهم لنرى ماذا فعلوا في تخطيطهم وهل يعملون منفردين من دون رقابة إلهية ؟ أم توجد هناك رقابة وتخطيط إلهي أجاب القرآن عن ذلك كله فقال:
* (مكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون) * (٢)
فعجل الله عليهم العقوبة وأصبحوا في ديارهم جاثمين قبل أن ينفذوا ما خططوا له وطويت الصفحة لتبدأ صفحة أخرى من سجل الأنبياء.
صالح (عليه السلام) وأساليبه في المواجهة
أولا: - الحوار الهادئ
الهدوء سمة من سمات الأنبياء (عليهم السلام) في كل المراحل السياسية في الدعوة إلى الله

---

(١) النمل: ٤٨ - ٤٩.
(٢) النمل: ٥٠.

تعالى، في تحركاتهم، وفي حوارهم مع المستكبرين، فهم لا يواجهون الأعداء بعصبية الجاهلية بل يواجهوهم بروح الرسالة الإلهية النازلة من السماء لترفع الناس الله تعالى.

فهذا صالح (عليه السلام) وهو يحاور قومه ويحاورونه، يحاورونه بالتهديد والوعيد تارة وبالغدر والخيانة أخرى ويحاورهم بهدوء الرسالة ووحيها وبعبقات الإيمان التي يمتلكها فقال لهم:

* (قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون) * (١)

حوار هادي يثير أمامهم التساؤل والاستغفار ويترك الجواب إلى وجدانهم ونفوسهم فهو يقول لهم لماذا هذا الاستعجال بالسيئة؟ لماذا لا تستغفرون الله؟ ما هو السر في ذلك؟ كل ذلك يطرحه على مسامعهم بأسلوب التودد والتقرب إليهم لينقذهم من الضلال لا بأسلوب المنة والفضل، فلتكن كل دعوات العاملين إلى الله بهذا الأسلوب المنفتح البعيد عن التشنج والعصبية.

ثانيا: - تذكيرهم بالنعم

كثيرا ما ينسى الإنسان ما يحل به سواء كانت نعمة أو نقمة، فلا يتخذ الظروف السهلة والصعبة درسا يستفيد منه في حياته بل تمر عليه تلك الظروف مر السحاب من دون أن تنزل مطرها على حياته لتسقيها كيفية المواجهة مع تقلبات الحياة ومطباتها.

فاتبع صالح (عليه السلام) سياسة التذكير، تذكيرهم بنعم الله بعدما نسوها، تذكيرهم بتلك

النعم التي أنعم الله بها عليهم، فهو يذكرهم بها واحدة بعد واحدة ابتداءا من جعلهم خلفاء من بعد عاد، ثم اتخاذهم القصور ونحت الجبال كبيوت، وبعد كل هذا يثير في أنفسهم سؤال هو أنه هل يترك الإنسان من دون امتحان وبلاء؟ هل يخلد الإنسان في هذه الدنيا؟ وهل تبقى هذه النعم دائمة لا تزول؟ كل ذلك يطرحه أمامهم بهذه العبارة:

---

(١) النحل: ٤٦.

* (أتتركون في ما هاهنا آمنين) * (١)
أتظنون أنكم تتركون فيما أعطاكم الله في الدنيا من خير آمنين من الموت والعذاب وهذا إخبار بأن ما فيهم من النعم لا يبقى وسيزول عنهم (٢) سيزول إذا أصروا على مواقفهم في اتباع آباءهم على تلك العقائد الساذجة التي ما أنزل الله بها من سلطان.
ثالثا: - التساؤل
هذه هي وسيلة أخرى من وسائل الأنبياء (عليهم السلام) في المواجهة، فهذا صالح (عليه السلام) يثير
أمامهم سؤال لا مفر من إجابته إلا بالاعتراف والإذعان للحقيقة، فهو تساؤل ينفذ إلى أذهانهم ويثير بها شكوك حول ما يتبعون من عقائد وأفكار.
* (قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون) * (٣)
تساؤل يطرح أمامهم ليحكموا على تصرفاتهم ويقيموا مسيرتهم في الحياة فليتساءلوا فيما بينهم لماذا هذا الطريق دون ذاك؟ لماذا نكابر ونعاند من دون دليل أو حجة؟ فيأخذ الترديد في أذهانهم مأخذه ويتسرب الشك إلى عقولهم ولكن هذه المرحلة بمفردها لا تكفي فهي المعبر إلى الحقيقة لأن الشك كما يقولون أروع معبر بقدر ما هو أسوء منزل، فإذا استمر هذا الشك بالدب في عقولهم سيصلون إلى الحقيقة، وأما إذا استقروا على ذلك الشك بقي العناد والاستكبار على محله.
رابعا: - النصح
* (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) * (٤)

---

(١) الشعراء: ١٤٦.
(٢) مجمع البيان: ج ٧ - ٨، ص ١٩٩.
(٣) النمل: ٤٦.
(٤) الأعراف: ٧٩.

إبلاغي بالرسالة هو نصيحة لكم لما فيه من إنقاذكم من الضلال والإغراق والسير وراء الشهوات الزائلة فهذه نصيحتي إليكم وهو أن تعبدوا الله وتطيعوا رسله وإلا فالعذاب، العذاب الذي لا مفر منه، وإلا فالصيحة والرجفة الكبرى التي تجعلكم جاثمين في دياركم ولكن لم يذعنوا له ولم يلتزموا بما نصحهم به لأن من أحب إنسان قبل منه وهم لم يقبلوا من صالح (عليه السلام) نصحه.

وأخيرا وبعد هذا التبليغ والكدح من قبل صالح (عليه السلام) ليخرجهم من الظلمات إلى النور

ولينجيهم من العذاب الأكيد أصر هؤلاء على الاستكبار أصروا على عدم الطاعة عندها جاء الأمر إلى صالح ليخرجهم منهم، فإن الأوامر قد صدرت لتدمر تلك البقعة التي عصوا الله فيها وتدمرهم معها، تدمرهم بحيث لا يبقى لهم أثر يدل عليهم فقال تعالى:

* (كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود) * (١)

* * *

---

(١) هود: ٦٨.

إبراهيم (عليه السلام)
رحلة جديدة في أعماق التاريخ لنرى من خلالها الماضي الذي يعتبر نقطة انطلاق للمستقبل في الخير والشر، رحلة جديدة مع نبي جديد ومأساة جديدة ومعاناة جديدة وعناد واستكبار ولجاج وغرور من قوم جديد، ونحن ننظر في التاريخ مخلفين الزمان ورائنا وجدنا شمعة أبرقت في الماضي السحيق لتنير الطريق للأجيال وتحدد العبر والمواعظ لمن أراد أن يتعظ، فالتاريخ دروس وعبر، دروس تحدد مستوى المتلقين في ذلك الزمان، وعبر تحدد مدى عقول المتعظين في المستقبل.
ونحن نقلب ذلك التاريخ الماضي وجدنا رمزا من رموز الإنسانية وفكرا إلهيا جديدا وعلما يحدد لقومه الطريق، ووجدنا قوما يستكبرون كلما تزداد الشمعة اتقادا وينحرفون كلما يوجه إليهم دعاءا، وا أسفاه إنها مهزلة العقل البشري، إنها مهزلة ندرسها من خلال المجابهة بين المصلح والمنحرف ومن خلال أساليب المواجهة بينهم، فلماذا هذا الاستكبار؟ ولماذا هذا العناد؟ ولماذا هذا الانحراف؟ ألم تكن لديهم عقول؟ فما هو السر؟ كل ذلك نعرفه من خلال الالتفات إلى الوراء إلى النقطة التي منها انطلقنا إلى التاريخ الذي يحدد تلك المواجهات.
وحان الوقت ووصلت رحلة التاريخ إلى إبراهيم (عليه السلام) إلى صاحب القلب الكبير الذي
يستغفر لمن يرجمه، إلى الشمعة التي ننظر إلى بصيصها في التاريخ رغم كل التحريفات التي مرت بها الكتب عبر الزمان، دعونا من كل الكتب ولنعطف القلم إلى كتاب الله الكريم إلى من سلم من كل تحريف وزيغ، فلننظر إلى القرآن المجيد وهو يحدثنا عن إبراهيم (عليه السلام) حيث يقول:

* (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا) * (١)
صديقا في القول والعمل، صديقا في الدعوة والتبليغ، صديقا في المواجهة، صديقا مع نفسه ومع ربه ومع أباه آزر ومع قومه الذين جابهوه بمختلف الوسائل التي لم تكن غريبة على أنبياء الله تعالى (عليهم السلام).
قوم إبراهيم (عليه السلام)
الجهل إذا أطبق على أمة من الأمم سيرها خلف شهواتها وأبعدها عن عقلها، فالجهل وكما قيل لا ينصب أفكارا بل يقيم أصناما، فهاهم قوم إبراهيم يحدثنا عنهم القرآن الكريم الذي يعتبر أوثق المصادر نقلا عن تلك الحقب الزمنية السحيقة ، فهو يرسم لنا المستوى الفكري والسياسي والاجتماعي للأقوام من خلال نقله طرق وأساليب المواجهة بين الإصلاح والانحراف في تلك المرحلة.
فقوم إبراهيم (عليه السلام) يصورهم القرآن الكريم بأنهم كانوا عبدة لأصنام هم رسموها
وحددوا هيئاتها وأشكالها فجمدوا عقولهم وخضعوا لها فكريا قبل أن ينحنوا لها جسديا.
* (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) * (٢)
فهذا هو الجمود الفكري الذي يورث الجهل والانحراف، ألم يكن لكم عقول؟ لماذا لا تكونوا أنتم الآباء وتأسسوا لأبنائكم حضارة فكرية وقيم أخلاقية؟ لماذا تسيروا وراء آباءكم من دون تفكير وروية؟ فالأصنام التي تعبدونها لا تحتاج إلى كثير تفكر حتى تهجروها مليا.
فهاهم يعبدون أصناما لا تنفع ولا تضر ونبههم على ذلك إبراهيم (عليه السلام) فقال * (أفتعبدون من الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم) * (٣) فلو تأملوا في هذه الكلمات قليلا لرجعوا عما هم عليه من العقائد الفاسدة والأعمال المنحرفة والطقوس التي يمارسونها يوميا لتلك الأصنام الهامدة التي لا تجاوب من يستنطقها ولا تنفع من يحتاجها، فيا عجبا لعقل خضع لصنم! ويا عجبا لجسد خوى لجثة هامدة! ويا عجبا لزمان يحارب فيه المصلح! ويا عجبا لأقوام لا تخضع لعقولها! فإذا تصفحنا

---

(١) مريم: ٤١.
(٢) الأنبياء: ٥٣.
(٣) الأنبياء: ٦٦.

كتاب الله العزيز وأبصرنا بالخصوص ما ورد من الآيات الشريفة في قوم إبراهيم (عليه السلام)

وجدناه يصفهم بأنهم أجسادا بلا عقول لما هم عليه من الأفكار والعقائد والعبادات اليومية التي اختلقوها، فهم يعبدون من لا يزيدهم إن لم ينقصهم بل يذهب بهم إلى الهاوية، فهم يعبدون أصناما وجدوا آباءهم لها عابدين فساروا على تلك الطريقة وعلى ذلك الانحراف بلا تفكير وتأمل وإذا سلمنا أن ما يحيط بالإنسان في بعض الحالات يجبره على أن يفعل شيئا من الأشياء وهذا الجبر ليس خارجا عن قدرة الإنسان بقدر ما هو جبر لظروف موضوعية خاصة فإذا سلمنا ذلك كله وقلنا أن قوم إبراهيم أطبق عليهم الجهل واتبعوا مذاهب شتى لظروف خاصة كان يجب عليهم أن يتبعوا إبراهيم (عليه السلام) عندما صدح بصوت الحق والتحرر عندما قال:

* (اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) * (١)

فلا بد للظلام أن يتبدد بهذا الصوت ولا بد للإنسان أن يتحرر فهو صوت الحق والعدالة، فلننظر ماذا كان جواب القوم عندما جاءهم إبراهيم بذلك؟ كان جوابهم المجابهة بالأقوال والأعمال.

* (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو أحرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) * (٢)

فهو يدعوهم إلى العقل والمنطق السليم وهم يأمرون به إلى النار، ويدعوهم إلى الله ويجرونه إلى عبادة الأصنام وإلا فالقتل، يرغبهم ويرهبونه، فهذا هو جواب القوم وهذا شأن كل المواجهات بين المصلحين والمنحرفين، بين الحق والباطل إلى أن تبلغ المواجهة ذروتها وييأس الرسل من أقوامهم ويطبق الظلام عليهم فلا يترك منفذا للنور، عندها تحل السنة الإلهية لتنهي الموقف وتطلق صافرة النهاية ويحل العذاب وتطوى الصحف صحف الأعمال اليومية والملتقى يوم القيامة.

فلو تسائلنا مع أنفسنا لماذا هذا الانحراف والعناد؟ لكان الجواب إننا إذا وضعنا عقولنا جانبا وتصرفنا بحياتنا بعيدا عن التفكير المنطقي البرهاني نجد أنفسنا في هاوية لا ينقذنا منها شئ إلا العودة إلى الصواب والحق، وهذا هو الذي ساد في مجتمعات الأنبياء (عليه السلام)، ساد الجهل فلم يبقي أفكارا وسادت الأنانية فلم تترك مجالا للإيثار والتوجه الصحيح إلى الدعوات الحقة التي يطلقها أنبياء الله (عليه السلام).

---

(١) العنكبوت: ١٦.

(٢) العنكبوت: ٢٤.

إبراهيم (عليه السلام) يدعو أباه آزر
مشكلة جديدة أمام نبي الله إبراهيم (عليه السلام) وهي (أباه) وإن لم يكن أباه الصلبي كما
سيأتي ولكن كان قريبا إليه، فلا بد للإنسان عندما يريد أن يغير لا بد له أولا أن يغير ما حوله قبل أن يغير المجتمع وهذه ليست لأبدية حتمية ولكن من الأفضل أن ينطلق الإنسان في أول انطلاقته إلى أقرباءه وأصدقاءه الذين يحيطون به حتى لا تبقي أي نقطة سلبية يستفيد منها الأعداء ليهرجوا بها حتى يضلوا السذجة من الناس الذين يفكرون بعقول غيرهم لا بعقولهم، فهؤلاء كثيرون يحكمهم العقل الجمعي الذي يتحكم بالشعوب عادة فضلا عن السذج، فهذه نقطة مهمة لمن أراد الإصلاح والتغيير.
فجاء إبراهيم ليحدد لنا درسا في هذا الموقف فدعا أبيه إلى عبادة الله تعالى وترك عبادة الأصنام * (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا) * (١) هذه الدعوة امتزجت فيها العاطفة مع الرسالة، امتزجت لتخط لنا منهاجا في التعامل مع من يفرض علينا طبيعة التعامل أن نتعامل معهم برقة وحنان فكلام إبراهيم (عليه السلام) لأبيه كلام في منتهى
الرقة بقدر ما هو بمستوى الرسالة فهو يقول * (يا أبت) * كم لهذه الكلمة من وقع في قلوبنا فضلا عن إبراهيم (عليه السلام) ويكررها مرارا وتكرارا ليشعر أباه بالمكانة التي يحتلها في قلبه فهذه كلمة تطوقها العواطف ويحتويها الإيمان ويأمر بها الدين، وفي هذا البحر العاطفي لم ينسى إبراهيم (عليه السلام) أهداف رسالته بل راح يدعو أباه بأساليب
الأنبياء في المواجهة، فأخذ يشرح له مواصفات أصنام قومه التي يعبدونها، فهي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنك يا أبتي شيئا، فهي لا تنفع نفسها فكيف تنفع غيرها، وهي فاقدة لأدنى مرحلة من مراحل الشعور فكيف تمد غيرها بالأمن والسلام وفاقد الشئ لا يعطيه، وبعد هذا التفنيد لأصنامهم شرع في بيان السر في دعوته إلى الله تعالى فقال: * (يا أبت إني قد جائني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا) * (٢)

---

(١) الأنبياء: ٤١.
(٢) مريم: ٤٣.

علم إلهي أنجيك وأنجي نفسي وقومي به، علم أميز به الحق من الباطل وأشخص به الصراط المستقيم، فيا أبتي اتبعني لكي أوصلك إلى تلك الحقيقة التي من أجلها خلقنا، فيا لها من رسالة تدعو إلى الطريق السوي ولا تنسى العاطفة، تدعو إلى الله ولا تنسى الظروف الاجتماعية التي تحيط بقوم إبراهيم لما هم عليه من احترام الأب وإطاعته في كل ما يقول ويأمر حقا كان أو باطلا، ثم ترقى إبراهيم مع أباه في سلم الهداية فقال له * (يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا) * (١) حدد لأبيه الوسيلة التي تنقذه ألا وهي ترك عبادة الشيطان وبين له وظيفة هذا الملعون المطرود من رحمة الله في هذه الدنيا وما هي إلا الإغواء والضلال عن الطريق المستقيم، فأطلق إبراهيم (عليه السلام) كلمة الشيطان لتشمل كل ما هو مبعد عن
عبادة الله، فالأصنام شيطان والجهل شيطان، ثم قال له * (يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) * (٢) خوف ألم بإبراهيم وملئ قلبه على أبيه الذي يدعوه برقة وحنية، خوف لم يستطيع إبراهيم أن يكتمه، ويكتفي بأن يدعو إلى الله فقط، خوف مشوق لآزر لينظم إلى إبراهيم وينجو من العذاب، فهذه دعوة إبراهيم لأبيه، دعوة إلى الخلاص، إلى الأمن والسلام والاطمئنان.
هذه هي وسائل إبراهيم في دعوة أباه إلى الله، وسائل امتزجت بها العواطف مع الأفكار وامتزجت بها الحقائق مع المشاعر لتؤلف مزيجا فريدا من نوعه وأسلوبا جديدا في التبليغ الرسالي الذي ينتهي بالوصول إليه تعالى والفوز برضوانه.
إلى هنا أكمل إبراهيم واستفرغ وسعه في تبليغ أباه بصوت الحق والعدالة وضل ينتظر بفارغ الصبر جواب أبيه على ذلك خصوصا أن إبراهيم (عليه السلام) أبدى لأبيه خوفا
عليه وهذا الخوف لم يكن من عاطفة خالية من أي تفكر بل هو
خوف من قوة يعرفها إبراهيم جيدا ويعرف مدى غضبها وانتقامها من الكافرين.
جواب آزر لإبراهيم
* (قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا) * (٣).

---

(١) مريم: ٤٤.
(٢) مريم: ٤٥.
(٣) مريم: ٤٦.

تهديد ووعيد وطرد وقتل خالي من أي حجة وبرهان وبدون أي سبب سوى اتباع طريق الحق والعدالة، وهذا هو الجواب الذي رأيناه وسمعناه من الأقوام التي بلغت برسالات الله تعالى، فهو يهدد إبراهيم (عليه السلام) بالرجم الذي هو أشر أنواع القتل، يهدده
بالهجر طول الدهر، ويهدده بأن يسلب منه الأمن والأمان، فلهذا التهديد والوعيد وقع في نفس إبراهيم (عليه السلام) لأنه صادر من إنسان قريب إليه، فعندما سمع (عليه السلام) ذلك
الجواب تألم كثيرا، تألم على آزر وما سيلاقيه إذا استمر على هذا العناد والمكابرة، فاحتفظ بجواب أبيه ولم يواجهه بأسلوب خشن بل راح يسلم عليه ويستغفر له فهو أسلوب إبراهيمي رسالي ينطلق من واقع الرسالة ويتحرك في أفقها وخطها العام
* (قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا) * (١).
فهذه هي المواجهة التي من خلال استعراضها ومن دون تعليق يكشف القارئ الحق والباطل فهذا إبراهيم (عليه السلام) يؤمن أباه بالسلام والاستغفار بعد ما هدده أباه بالطرد
والرجم والقتل، بهذا الأسلوب يفلج الحق ويزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.
وما أن أتم إبراهيم كلامه مع أبيه وجه له في نهاية المطاف كلاما نعتبره في غاية الإيمان والتسليم إلى الله تعالى فهو لم يرهب من التهديد والوعيد بل قال
* (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا) * (٢) فهو اعتزال نهائي لا رجعة فيه ولا مجال للشك يا أبت فيما أعتقد وأقول بل هو إيمان واطمئنان بقوة خارقة وجبارة قادرة على أن تغير المواقف وتبدل الأحوال إذا عجز البشر عن ذلك.
المعية الإلهية
لا بد للإنسان أن يعطف حياته بالتوجه الكامل والتسليم المنقطع إلى تلك القوة الغيبية الحاضرة مع الإنسان في كل حركاته وسكناته وهي أقرب إليه من حبل الوريد كما عبرت عن ذلك بعض الآيات والروايات الواردة عن الأئمة (عليهما السلام). فهي
معية مرافقة للإنسان في كل مراحل حياته فأشار إليها إبراهيم (عليه السلام) عندما قال:
* (الذي خلقني فهو يهدين) * (٣)

---

(١) مريم: ٤٧.
(٢) مريم: ٤٨.
(٣) الشعراء: ٧٨.

خلقني من لا شئ ضعيفا لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ويهديني في كل مراحل حياتي إلى الطريق المستقيم والنعمة الأبدية والحياة التي لا تزول، يهديني إلى عبادته وإلى حنانه، ثم قال:

* (والذي هو يطعمني ويسقين) * (١)

فهو معي في سرائي وضرائي وفي جوعي وعطشي، فهي رفقة إمداد إلى محتاج على طول الطريق، وهي صحبة غني لفقير، ثم قال:

* (وإذا مرضت فهو يشفين) * (٢)

فهذا هو منتهى التسليم والطاعة والخضوع والتذلل إلى من بيده حياة العبد وجودا وبقاء.

* (والذي يميتني ثم يحيين) * (٣)

معي على الأرض وتحتها لا يفارقني أبدا ما كنت معه

* (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) * (٤)

طمع في كريم * (لا يزيده كثرة العطاء إلا جودا) * طمع في رحمة لا تزول ولا تنقص ، طمع في إمداد مستمر ودائم وأزلي.

فهذه هي المعية الإلهية التي واجه إبراهيم (عليه السلام) القوم بها وترجمها على الواقع، ترجمت عندما أراد القوم أن يحرقوه (عليه السلام) بنار أعدوها هم وأرادوا منها إحراق نبي

الله وخير الخلق في ذلك الزمان ولكن هيهات، إن للنار مكون وخالق قادر على أن يغير النتائج وإن حصلت المقدمات، فتحققت تلك المعية عندما قالوا:

* (حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) * * (قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) * (٥)

معية مع إبراهيم في النار التي تحولت بأمر الله تعالى إلى بردا وسلاما بعدما كانت جهنم ونيرانا.

---

(١) الشعراء: ٧٩.

(٢) الشعراء: ٨٠.

(٣) الشعراء: ٨١.

(٤) الشعراء: ٨٢.

(٥) الأنبياء: ٦٨ - ٧٠.

وسائل إبراهيم في المواجهة
الوسيلة الأولى
كشف القناع عن أصنامهم
بين إبراهيم (عليه السلام) لقومه وكشف لهم الستار عن الأصنام التي يعبدونها وينحنون أمامها
ويطلبون منها الرحمة، فهم يعتقدون أن تلك الأصنام تمثل قوى غيبية قادرة على أن تتصرف في أجزاء الكون فهز إبراهيم (عليه السلام) الأرضية التي تبتني عليها تلك العقائد
والخرافات التي تراكم عليها الزمن في نفوس القوم من الأجداد إلى الآباء ومن الآباء إلى الأبناء حتى لم يكن هناك مجال للتفكير والتأمل لدحضها، فحاول إبراهيم (عليه السلام)
أن يضرب تلك القاعدة المستمكنة في نفوس القوم فتوجه إليهم وقال:
* (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) * (١)
فهي أجساد هامدة لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا تنفع ولا تضر ولا تعطي ولا تمنع فلماذا أنتم عاكفون لها؟ اسألوا أنفسكم وراجعوها، ثم أخذ بعد ذلك يبين لهم حقيقة تلك الأصنام فقال لهم:
* (إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) * (٢)
فهذه الأصنام لا تستطيع أن ترزق نفسها فكيف ترزقكم، ولم ينسى إبراهيم (عليه السلام) أن
يبين للقوم بعض صفات الله تعالى لما هو رازق ومنعم وإنكم إليه ترجعون إليه في نهاية المطاف.
الوسيلة الثانية
الحجة والبرهان القاطع

---

(١) الأنبياء: ٥٢.
(٢) العنكبوت: ١٧.

الحجة والدليل لها محلها في العقل البشري، فالإنسان مهما أنكر من الحجة والبرهان تضل نفسه في حالة الشك والريبة لأنه منهزم برهانيا وإن كابر وعاند، فهذا إبراهيم (عليه السلام) يتبع هذه الحجة العملية مع القوم عندما خرجوا إلى عبادة لهم
خارج المدينة وظلت معابدهم محروسة بتلك القوة الغيبية التي تمثلها الأصنام في اعتقادهم فراغ إبراهيم (عليه السلام) يكسر تلك الجثث الهامدة بيمينه القوية المستمدة قوتها
من الله تعالى فصور لنا القرآن تلك الحركات والضربات للشياطين المنصوبة على الأرض فقال:
* (فراغ عليهم ضربا باليمين) * (١)
فهو يضربهم بقوة لا تعتريها شك، قوة إيمانية متأصلة في نفسه
* (فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون) * (٢)
فنصب لهم إبراهيم الحجة والبرهان عندما كسر أصنامهم نصبها لهم على عنق كبيرا لهم، فلما عادوا إلى المدينة ورأوا الذي حصل لم يفكروا بعقولهم بل راحت العصبية تسري في دمائهم فجاءوا بإبراهيم
* (قالوا أأنت فعلت بآلهتنا يا إبراهيم) * (٣)
فأجاب (عليه السلام):
* (قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) * (٤)
قال لهم ذلك والكل يعلم أنهم جثث هامدة لا تقدم ولا تؤخر، فإذا كانوا ينطقون اسألوهم، اسألوهم هل يملكون تلك الحاسة - حاسة النطق - أم لا؟ فإن نطقوا فعله كبيرهم وإلا فلا؟ فوقف القوم حيارى لا يعلمون ماذا يقولون بل قدحت في عقولهم قدحه للتفكير والاستدلال هل هؤلاء يتحركون وينطقون أم لا؟ هل هم أحياء أم أموات لا حياة لهم؟.
فهذه حجة عملية نصبها لهم إبراهيم (عليه السلام) أمام أعينهم ولكن هيهات من حكم شهوته
جنى على عقله.

---

(١) الصافات: ٩٣.
(٢) الأنبياء: ٥٨.
(٣) الأنبياء: ٦٢.
(٤) الأنبياء: ٦٣.

الوسيلة الثالثة
العودة إلى الحق
* (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) * (١)
يا قومي اعبدوا من كان له حياة وشعور ومن هو قادر على النفع والضرر، اعبدوا الله الذي خلقكم وإليه ترجعون، اعبدوه وطهروا أنفسكم من كل وسائل الشرك والانحراف والزيغ عن الحق وبهذا تجلبون لأنفسكم النفع وتدفعون عنها الضرر، فهذه الوسيلة جاء بها كل أنبياء الله تعالى ليخرجوا أقوامهم من الظلام الحالك الذي حل بهم إلى النور والعقل والتفكير.
الوسيلة الرابعة
تفنيد ادعاءاتهم
كان قوم إبراهيم متفرقين متشتتين في الأفكار والعقائد فمنهم من يعبد الأصنام ومنهم من يعبد الكواكب وهؤلاء قسم يعبدون السيارة منها وغيرهم يعبدون الثابتة ولكل منهم آراء وأفكار فأراد أن يجمعهم تحت راية واحدة وعقيدة واحدة وما من طريق لذلك إلا أن يفند ما يزعمون من الآلهة والأصنام، فراح يفند ذلك بأسلوب رسالي لا يبقى مجالا للشك في بطلانها.
* (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين) * (٢)
فهو يسير مع القوم ليدحض لهم ما يعتقدون، فلما رأى ذلك الكوكب والقوم يعبدونه ويقدمون له القرابين سايرهم في ذلك وماشاهم وهو يعلم بأن الله هو الخالق والمدبر وكيف لا يعلم وهو يقول:
* (يا أبت إني قد جائني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا) * (٣)

---

(١) العنكبوت: ١٦.
(٢) الأنعام: ٧٦.
(٣) مريم: ٤٣.

سايرهم كوسيلة لتفنيد ادعائاتهم فلما رأى ذلك الكوكب خفت نوره وأفل قال لهم:
- إن الرب الذي يمد الإنسان بما يحتاج لا بد أن لا يغيب ليبقى مع الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته فأنا لا أحب الآفلين، ابحثوا عن رب ثان غير متحرك ثابت يدبر أمركم ويمدكم بما تريدون ثم أخذ يفند ادعاءاتهم الأخرى ويسير بهم من الخاص إلى العام.

* (فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الظالمين) * (١)

فهو يسير معهم ليثبت لهم أن الله ليس في هذه الوسائل التي تبزغ وتأفل، فهذه بنفسها تحتاج إلى من يدبرها.

* (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون) * (٢)

يكلمهم على قدر عقولهم بأن هذا أكبر يحتاج إلى العبادة ولكن عندما أفلت أوصلهم إلى النتيجة التي لا بد من الوصول إليها بأن يتبرأوا من عبادة هذه الكواكب واللجوء إلى قوة الله المطلقة فقال لهم:

* (قال يا قوم إني برئ مما تشركون) * (٣)

برئ من كل إله يحضر ويغيب، ومن كل صنم لا ينفع ولا يضر، برئ من كل هذه الخرافات والأحجار التي أنتم لها عاكفون

* (إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) * (٤)

وسائل القوم في المقابلة

الوسيلة الأولى

التمسك بعادات الآباء

---

(١) الأنعام: ٧٧.
(٢) الأنعام: ٧٧.
(٣) الأنعام: ٧٨.
(٤) الأنعام: ٧٩.

هذا هو الجمود الفكري، وهذه هي ضحالة العقول، وهذا هو التخلف الحضاري عندما تسير الأمة وراء عادات وتقاليد عارية من الحجة والبرهان، فمن طبيعة الإنسان أن يتسائل عن الصغير والكبير وعن كل شئ يحيط به فما بال هؤلاء يجمدون عقولهم على عادات وتقاليد خطها الآباء جهلا؟ فلماذا هذا التعصب ولماذا العناد؟ إنها القبلية التي واجهت الأنبياء في دعواتهم وهاهي تواجه اليوم إبراهيم (عليه السلام)

* (قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) * (١) وهم لها عابدين.

* (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) * (٢)

فلا دليل لدينا سوى سجود الآباء لتلك الأصنام وتقديسهم لها ونحن نسير على ما خلفوه لنا، تقديس أعمى لا يوصل الحق بل نتيجته الانحراف والظلال.

الوسيلة الثانية

التخويف

* (وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شئ علما أفلا تتذكرون) * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون إنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن أن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم " (٣)

هذا هو أسلوب القوم في المواجهة بعدما بحثوا عن البرهان فلم يجدوه فلجأوا إلى التخويف، تخويف إبراهيم من الأصنام المعبودة ومما تملك من قوى غيبية كما يتصورون فقالوا له إنا نخاف عليك من تلك الآلهة فإنها قادرة على أن تمسك بسوء فاحذرها ولا تعترضها بشئ فقال لهم إنكم أولى بطلب الأمن مني فأنا معي ربي في كل لحظة وفي كل خطوة، فهو يتحداهم ويتحدى أصنامهم، يتحدا تلك الأحجار الهامدة والأجسام الصامتة التي لا حول لها ولا قوة فهذا درسا جديدا

---

(١) الشعراء: ٦.

(٢) الأنبياء: ٥٣.

(٣) الأنعام: ٨٠ - ٨٣.

يرسمه لنا إبراهيم لنتزود منه في حياتنا المعاصرة، فها هم يخوفونا من قواهم المادية ومما يمتلكون من الوسائل فلا ملاذ لنا إلا إلى الله تعالى كما لاذ به إبراهيم قبل آلاف السنين، وما علينا إلا أن نتبع طريق إبراهيم في السلوك إلى الله حتى تكون كفة الميزان راجحة لحسابنا، فلنرتوي من منهل الإسلام المحمدي الأصيل لينجينا من عذاب الدول وتسلط الأعداء.

الوسيلة الثالثة: - الرجم والهجر

الرجم: - هو الرمي بالحجارة والمعروف من معناه القتل برمي الحجارة (١) والهجر هو الطرد والإعراض دهرا هذه هي الوسيلة الأخرى التي جاءت على لسان أبيه آزر إذا لم يكف عن التعرض لآلهتهم.

* (قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنتهي لأرجمنك واهجرني مليا) * (٢) هذه الوسيلة جاءت على لسان آزر لتدق جرس الانذار عند إبراهيم في بداية فصل جديد من فصول المواجهة بين الإصلاح والانحراف بين الحق والباطل، فهاهم يهددونه بسلب الأمن والإيمان الذي يتمتع به بينهم إذا لم يكف عن التعرض لآلهتهم بسوء فقال لهم إبراهيم (عليه السلام) والجواب لأبيه * (سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا) * (٣) سأستغفر لك ربي رغم التهديد والوعيد الذي تجابهني به فهذه هي رفعة الأنبياء وهذه هي حقيقة القوم وإن كان المجابه هو آزر الذي يعبر عن لسان قومه، فإبراهيم واجه أباه مراعيا لكل الأصول والأعراف الدينية والاجتماعية التي تحيط بمجتمعه.

الوسيلة الرابعة: - القتل والحرق

* (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) * (٤)

---

(١) الميزان: ج ١٤ ص ٥٨.
(٢) مريم: ٤٦.
(٣) مريم: ٤٧.
(٤) العنكبوت: ٢٤.

وسيلة أخرى تبين لنا مدى قدرة وقابلية إبراهيم (عليه السلام) في المواجهة فهي وسيلة تختبر
من يواجهها اختبارا عسيرا، تختبر إبراهيم (عليه السلام) في صدقه بالرسالة وفي دعواه بالعبودية وتكشف الستار عن وجه القوم البشع، القتل أو الحرق، فواجه إبراهيم (عليه السلام) ذلك بمنتهى الخشوع والطاعة، واجههم بتلك الروح التي تحملت كل أساليبهم
الخبيثة، واجههم بالتوجه إلى الله والتسليم الكامل إليه نافيا كل أنواع الشركة معه فقد روي أنه لما ألقي إبراهيم في النار تلقاه جبرائيل في الهواء وهو يهوي فقال: يا إبراهيم ألك حاجة فأجابه إبراهيم أما إليك فلا يأله من تسليم مطلق ومن عبودية كاملة جعلته يستغني به عن سواه في أحرج الظروف وأشدها.
وهذا درس آخر يرسم إبراهيم لنا ملامحه بهذه الروحية التي استغنت حتى عن جبرائيل (عليه السلام) وسلمت الأمر إلى الله تعالى فقال القرآن في ذلك:
* (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) * (١)
آيات ودروس نستعين بها في حياتنا اليومية وإن اختلفت الأساليب والطرق الموجهة ضد المصلحين.
إبراهيم (عليه السلام) وطاغية زمانه
المواجهة الجديدة مع الملوك، مع طواغيت الأرض الذين يستعبدون الإنسانية ويحددون لها عقائدها وأفكارها ويسيرونها حسب ما يرغبون، فلم تقتصر دعوة إبراهيم على قومه بل راح يحاجج الملوك ويهزمهم، فهذا النمرود الذي أعرض عن ذكر اسمه القرآن الكريم وذكرته لنا روايات أهل البيت (عليهما السلام).
" عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: الذي حاج إبراهيم في ربه هو نمرود بن كنعان " (٢)
هذا الطاغية الذي ادعى لنفسه الألوهية عندما قال لإبراهيم (عليه السلام):
* (أنا أحيي وأميت) * (٣)
وهذا شأن كل الطغاة في هذه الدعوى وإن كتمها البعض قولا فقد صرح بها عملا،

---

(١) العنكبوت: ٢٤.
(٢) الميزان: ج ٣، ص ٣٨٢.
(٣) البقرة: ٢٥٨.

هذا شأنهم في جعل الشعوب تسير خلف ما يرون وما يحددون، فهذا النمرود بدل أن يشكر الله على هذه النعمة وهذا الفضل راح يفرض نفسه على مشاعر الناس وعقائدهم، وما أن سمع بأن لإبراهيم ربا فوق ما يعبدون وما يتصورون، عظم ذلك عليه وأرسل إليه فأخذ يحاجه في ربه.

* (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت) *

فهذه المواجهة كشفت لنا عن أمرين:

الأول: - مغالطة النمرود لإبراهيم

الثاني: - مستوى الحاضرين الفكري

وكلا الشقين واضح، أما الأول فإن نمرود غالط عندما قال: (أنا أحيي وأميت) وأنه يعلم أن إبراهيم عندما وصف ربه بهذا الوصف لا يقصد منه ما أراد النمرود من الإحياء والإماتة، وأما الشق الثاني فلم يسجل لنا التاريخ اعتراض أحد من الحاضرين على مغالطة النمرود وهذا بدوره أيضا يكشف عن شيئان جديدان وهما:

ا - أما لغلبة وقهر النمرود لهؤلاء بحيث لا يستطيعون الرد مهما كان الموقف حقا أو باطلا.

ب - العقلية الضحلة التي تحكم المجتمع في فترة حكمه.

وكلا الأمرين كارثة إذا سيطر على شعب من الشعوب لما يرث من الجهل والانحراف والتخلف المستمر.

فلنعد ثانيا إلى إبراهيم (عليه السلام) وماذا أجاب النمرود؟ هل رد المغالطة أم اتبع حجة أخرى أقوى من رد المغالطة وإيضاحها؟

الجواب: - أنه أقام حجة أخرى أجلى وأوضح من رد المغالطة وكشف التلاعب بالألفاظ.

* (قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين) * (١)

بهت لما في الحجة من قوة تجعل الخصم حائرا في أمره لا يدري ماذا يفعل وماذا يقول، فهذه المقابلة تعلمنا كيف نواجه أعداء الله إذا حاولوا المغالطة والتلاعب

---

(١) البقرة: ٢٥٨.

بعقول السذجة من الناس، وما أكثر هؤلاء في مجتمعاتنا الذين يتلاعبون بمشاعر الناس وأفكارهم باتباع الطرق والأساليب الملتوية في الكلام والاستدلال.
فهو درس إبراهيمي لا بد أن نستفيد منه من خلال نقاشاتنا ومناظراتنا مع الخصوم، ومع أعداء الله والإنسانية.
إبراهيم (عليه السلام) إماما
* (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) * (١)
الإمامة نصر إلهي وتأييد من الحق لإبراهيم (عليه السلام) بعدما تجاوز كل الابتلاءات التي مر
بها والشاهد على ما نقول بأن الآية نزلت في أواخر عهد إبراهيم (عليه السلام) ودليل ذلك من
القرآن لأن الآية تقول:
* (قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي) * فقبل مجئ الملائكة ببشارة إسماعيل وإسحاق ما كان إبراهيم (عليه السلام) يعلم ولا يظن أن سيكون له ذرية من بعده
حتى أنه بعد ما بشرته الملائكة خاطبهم بما ظاهره اليأس والقنوط كما قال تعالى:
[* (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) * * (إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال أنا منكم وجلون قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم) * * (قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون) * * (قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) * (٢)..... وقوله (عليه السلام): * (ومن
ذريتي) * بعد قوله تعالى * (إني جاعلك للناس إماما) * قول من يعتقد لنفسه ذرية، وكيف يسع من له أدنى دراية بأدب الكلام وخاصة مثل إبراهيم الخليل في خطاب يخاطب به ربه الجليل أن يتفوه بما لا علم له به؟ ولو كان ذلك لكان من الواجب أن يقول: ومن ذريتي أن رزقني ذرية أو ما يؤدي هذا المعنى فالقصة واقعة كما ذكرنا

---

(١) البقرة: ١٢٤.
(٢) الحجر: ٥١ - ٥٥.

في أواخر عهد إبراهيم بعد البشارة)] (١) فهذا النص الذي اقتطفناه من الميزان بين لنا أن الإمامة كانت في أواخر عهد إبراهيم (عليه السلام) عندما تجاوز كل البلاءات والامتحانات
وكان أعظمها بلاء ذبح ولده إسماعيل حيث عبر عنه القرآن * (إن هذا لهو البلاء المبين) * (٢)
فإبراهيم (عليه السلام) مهتديا بنفسه هاديا لغيره إماما يقود الناس نحو الله تعالى فهذه هي
عظمة الإمامة وهذه هي عطايا الله لخلقه الذين استخلصهم لنفسه وهداهم.
آزر لم يكن أبا صلبيا لإبراهيم (عليه السلام)
وقع لغط كثير حول آزر في أنه هل هو الأب الصلبي لإبراهيم (عليه السلام) أم لا؟ فمنهم من
قال إن آزر أبا إبراهيم الصلبي متشبثا بالأدلة القرآنية التي لا تنهض لإثبات المطلوب والروايات التي أيدت هذا المعنى.
ومنهم من قال لم يكن آزر أبا صلبيا لإبراهيم لأننا نعلم بأن القرآن يقول * (وتقلبك في الساجدين) * (٣) فلا يمكن أن يكون أبا أحد من الأنبياء مشرك وهذا هو الصحيح والدليل عليه من القرآن يحتاج إلى ذكر بعض المقدمات..
المقدمة الأولى
إن لفظة الأب تطلق على العم وعلى الجد ويصح إطلاقها ولها موارد حتى في القرآن الكريم مثل:
* (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون) * (٤)
ومن الواضح أن إبراهيم جد يعقوب وإسماعيل عمه

---

(١) الميزان: ج ١، ص ٢٦٣.
(٢) الصافات: ١٠٦.
(٣) الشعراء: ٢١٩.
(٤) البقرة: ١٣٣.

وكذلك كلام يوسف
* (واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب) * (١)
وإسحاق جد يوسف وإبراهيم جد يعقوب ومع هذا قال يوسف (عليه السلام) بأنهم آبائي.
المقدمة الثانية
إن إبراهيم وعد آزر بأن يستغفر له فقال * (سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا) * (٢)
وعده بالاستغفار ظانا بأنه سيهتدي إلى طريق الحق والصواب ولكن بعدما علم أنه اختار طريق الظلال والانحراف بترا منه فحدثنا القرآن عن ذلك:
* (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعده إياها فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) * (٣).
فتبرأ إبراهيم من آزر لما عليه من الضلال والانحراف.
المقدمة الثالثة
الدعاء الأخير لإبراهيم (عليه السلام) كان بمكة * (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا
واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ربي إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) * * (ربنا أني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا أنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شئ في الأرض ولا في السماء الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي

---

(١) يوسف: ٣٨.
(٢) مريم: ٤٧.
(٣) التوبة: ١١٤.

ربنا وتقبل دعاء ربي اغفر لي ولوالدي يوم يقوم الحساب) * (١)
هذا الدعاء الذي يعجز المفسرون أن ينالوا من حقيقته شيئا ذكرناه تبركا لأنه آخر دعاء لإبراهيم (عليه السلام) بعدما هاجر الأرض المقدسة فذكر فيه الاستغفار لأبيه الصلبي
الذي عبر عنه * (ولوالدي) * ولم يعبر عنه * (ولأبي) *
فالذي استغفر إبراهيم له سابقا غير هذا الذي يطلب له المغفرة هنا لأن ذاك تبرأ منه ولا معنى لأن يستغفر له ثانيا بعدما علم منه الانحراف والإصرار على الضلال فهذه هي نتيجة المقدمات الثلاث التي تثبت بأن آزر لم يكن أبا صلبي لإبراهيم (عليه السلام).
وأخيرا بعد هذه الابتلاءات العجيبة التي ابتلى بها إبراهيم (عليه السلام) جاء دور القرآن الكريم ليكرم هذا الرجل العظيم ويخلده في التاريخ إلى يوم القيامة وذلك عندما خصص له سورة كاملة في القرآن الكريم وهي سورة إبراهيم وذكره في ٦٧ موضعا من القرآن ومدحه بأوصاف قسمها على السور الأخرى وبما أننا نتحدث عنه (عليه السلام)
نذكر بعضا منها وفاءا تكريما وإجلالا لهذا النبي العظيم.
* (واتخذ الله إبراهيم خليلا) * (٢)
* (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا) * (٣)
* (وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم) * (٤)
* (سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين) * (٥)
* (قال إني جاعلك للناس إماما) * (٦)
* (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) * (٧)
* (إن إبراهيم لأواه حليم) * (٨)
* (وإبراهيم الذي وفى) * (٩)
* (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) * (١٠)
* (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) * (١١)

---

(١) إبراهيم: ٣٥ - ٤١.
(٢) النبأ: ١٢٥.
(٣) مريم: ٤١.
(٤) الصافات: ٨٤.
(٥) الصافات: ١٠٩ - ١١١.
(٦) البقرة: ١٢٠.
(٧) النمل: ١٢٠.

(٨) التوبة: ١١٤.
(٩) النجم: ٣٧.
(١٠) الأحزاب: ٧.
(١١) هود: ٧٥.

هذا من القرآن أما في الروايات فعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (إذا كان يوم القيامة
نوديت من بطنان العرش يا محمد نعم الأب أبوك إبراهيم ونعم الأخ أخوك علي) (١)
* * *

لوط

نبي آخر من أنبياء الله تعالى على أرضه، نبي آخر هاجر مع إبراهيم بدينه، هاجر ليرسله الله تعالى إلى قوم محدود ليعالج لهم مشكلة محدودة ألا وهي الشذوذ الجنسي الذي اتصف به ذلك المجتمع وهذه المشكلة التي عالجتها رسالات السماء علاجا استحال على النظريات الأخرى إيجاده، فأعطت السماء للغريزة حقها وللعقل دوره فلم تترك الغريزة تسير الإنسان ولم تكبت تلك الطاقة الكامنة في نفسه، وهذا الكلام ليس محله هنا ولكن القلم جرنا إلى ذلك ونعود ثانيا إلى لوط المرسل إلى تلك الزمرة التي كانت تخالف الفطرة وتسير باتجاه منحرف عن أصل الخلقة الإنسانية، وإلى أولئك الذين يفعلون السيئات ويرتكبون الفواحش والمنكرات * (إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون أني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسئلكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلف لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون) * (٢) فهو رسول الله إلى قومه ليأمرهم بالتقوى والطاعة، بالتقوى حتى يكفوا عن الأفعال

---

(١) كنز العمال: ج ١١، ص ٤٨٧.
(٢) الشعراء: ١٦١ - ١٦٦.

الشنيعة التي شاعت فيهم ولم تشع في قوم مثلهم (١) فخالفوا بذلك أصل الخلقة والفطرة السليمة ولجأوا إلى الانحراف والضلال، لجأوا إلى الذكران، إلى من يشبههم في الجنس ليشبعوا رغباتهم وشذوذهم الجنسي وتركوا الطريق المستقيم لذلك، فصرخ فيهم لوط بصرخة السماء صرخة الحق.

* (فاتقوا الله وأطيعون) *

اتقوه فيما تفعلون وتقولون واتركوا هذه الأعمال التي خالفت في أساسها الفطرة والذوق السليم، ودعوتي هذه خالصة لله لا أريد منكم أجرا * (وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين) * (٢) فالجزاء من الله لا منكم وما عليكم إلا أن تطيعوني وتسمعوني فيما أقوله لكم حتى أهديكم إلى طريق الرشاد والإصلاح والخلاص من العذاب الأكيد إذا استكبرتم وسرتم بطريقكم هذا، فالسكن الحقيقي هو نساؤكم، سكن بمعنى هذا الكلمة وليس شهوة فقط فهن المكملات للدور الإنساني في هذا الكوكب، فاتركوا ما تفعلون وتعالوا معي إلى الصواب والحق ولا تتعدوا الحدود والأعراف بفعلكم الذي قال القرآن عنه:

* (أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون) * (٣)

عادون كل الحدود والفواصل التي رسمها الله تعالى، فتوبوا وإلا فالعذاب، عذاب الله الذي لا مفر منه كنتيجة حتمية لما ترتكبون من سيئات.

جواب القوم

الجواب الأول: -

* (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا آتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) * (٤)

جهل بعذاب الله وإلا لما طلبوه، وحلم من الله وإلا قلب عليهم ديارهم كما أرادوا، عجيب أمر هؤلاء الأقوام أنبياءهم يدعوهم إلى سلوك طريق خالي من المتاعب

---

(١) الميزان: ج ١٦، ص ١٩٦ بتصرف.
(٢) الشعراء: ١٦.
(٣) الشعراء: ١١٥ - ١١٦.
(٤) العنكبوت: ٢٩.

وهم يصرون ويستكبرون على أن يبقوا على ما هم عليه بدون دليل أو حجة، فهذا لوط يدعوهم بأسلوب هادئ ويكشف لهم عن نتيجة عملهم هذا وشذوذهم.

* (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر) * (١)

تقطعون السنة وتنهون النسل البشري إذا سرتم على ذلك الخط وتجلبون السيئات إلى ناديكم فما لكم لا تنتهون واذكروا الله الذي سن لكم الطريق المستقيم واتقوه وخافوا عذابه فقالوا له:

* (آتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) * (٢)

تحدي صارخ لرسالات السماء وللسنن الإلهية وللرسل الذين أرسلهم الله تعالى ليقيموا الحق ويدحضوا الباطل.

الجواب الثاني: -

* (قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين) * (٣)

وهذا هو جواب القوم الثاني بعدما ألح عليهم في ترك ما يفعلون من السيئات وانحراف، وهذا هو الرد العاري عن منطق العقل الذي اتبعه المترفين مع الرسل، فهذا ينم عن ضحالة في الفكر والأسلوب.

فالإخراج هو الرد على ترك الانحراف عند قوم لوط الذين يعملون الخبائث، فتطهر منها لوط ونهاهم عنها، فقالوا أخرجوا هؤلاء الذين يتطهرون من رجسنا وعملنا هذا.

السنة الحتمية

* (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين) * * (قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ولما أن جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا

---

(١) العنكبوت: ٢٩.

(٢) العنكبوت: ٢٩.

(٣) الشعراء: ١٦٧.

تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين) * * (إنا منزلوا على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) * (١)

جاءت الرسل إلى إبراهيم لتبشره، وإلى مجتمع لوط لتدمره، جاءت بالبشرى للعبد الصالح الذي دعى قومه لله لتكرمه وترفعه وتجازيه الجزاء الذي يستحقه، وجاءت إلى مجتمع لوط لتلقنهم درسا على ما عملوه وأسسوه من انحراف عن فطرة البشر، فقال الملائكة لإبراهيم * (سلاما) * وقالوا لمجتمع لوط لا مفر من الدمار والحجارة والخزي والعار في الدنيا والآخرة، فخرجوا من إبراهيم متوجهين إلى قوم لوط فاستقبلهم لوط (عليه السلام) ولكن في نفسه شئ من ضيافتهم لما يلاقيه من قومه وحدثنا

عن ذلك القرآن بقوله:

* (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين) * (٢)

ضاق بهم لما يعلمه من الانحرافات والمشاكل التي يعيشها مجتمعه، تلك الانحرافات التي خرجوا بها عن صنف البشر، فهم الذين أسسوا انحراف الشهوة الجنسية عن مجراها الطبيعي ولم يسبقهم أحد بهذا المنكر كما حدثنا القرآن الكريم فقال: * (ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) *

فلم يسبقهم أحد من الأمم بهذا الانحراف إنه انحراف يهدد النسل البشري بكامله ويهدد البقاء على هذا الكوكب لما فيه من قطع السبيل الممتد للحياة والبقاء، ونعود ثانيا إليهم عندما سمعوا بأن في بيت لوط ضيوف من خارج المدينة جاءوا وبوصف القرآن الكريم * (يهرعون) * إنه الانحراف الجنسي الغريب، فلنبقى مع القرآن ليصفهم..

* (وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد) * (٣)

جاءوا يهرعون لمنكر آخر يضيفونه إلى حساب سيئاتهم، ولما سمع لوط بذلك

---

(١) العنكبوت: ٣١ - ٣٥.
(٢) العنكبوت: ٣٣.
(٣) هود: ٧٨.

خرج إليهم ليواجههم بأسلوب الأنبياء (عليهما السلام) ومنطق الرسالات الملئ بالبراهين
والأدلة ليردعهم برهانيا وإن لم يرتدعوا عمليا، فأخذ يخاطبهم ويبين لهم الطريق المستقيم لإشباع هذه الرغبة الجنسية وعرض لهم بناته ليتزوجوهن أفضل إليهم من هذا العمل المنكر ونستل من هذا العرض درسا آخر من الأنبياء ألا وهو التضحية في سبيل إثبات الحق ودفع الباطل فهذا لوط يعرض بناته وإن وقع الاختلاف في أن المراد من بناته ما هو – ولكن الذي يساعد ظواهر الآيات أن بناته من صلبه وذلك الرأي الآخر تحكم لا دليل عليه (١) فهذه هي التضحية في سبيل الرسالة فهو درس للقادة لقادة الإصلاح والتغير على أن يقدموا كل ما يملكون في سبيل رفعة الحق وإزهاق الباطل.
ونعود ثانيا إلى لوط في محاورته مع قومه عندما طلبوا منه ضيوفه ما طلبوا فقال لهم عودوا إلى فطرتكم السليمة ولا تخزوني وتنكسوا رأسي أمام ضيفي، ما لكم أليس فيكم من يحكم عقله على شهواته ويهديكم، فأجابوه بمنطق الانحراف والرذيلة منطق الدناءة والخسة منطق الشهوة والانحراف.
* (قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وأنك لتعلم ما نريد) * (٢)
نريد الانحراف ولا نرغب في الاستقامة ولن نترك ضيوفك مهما كلف الأمر فلم يجد بدا من ذلك فقال لهم وقلبه ملئ بالحسرات
* (لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد) * (٣)
وهذا درس آخر يخطه لنا لوط (عليه السلام) درس تحتاجه الرسالة في تطبيقها ألا وهو القوة
فلا بد للعاملين في سبيل الله من قوة تدفع عنهم شر الأعداء ويركنوا إليها في الشدائد ، قوة لا يستهان بها ويحسب لها حساب، يا لها من دروس كاملة لا تحتاج إلا إلى وعيها وهضمها، إنها دروس الرسالة فلا بد لنا من الوقوف عندها والتزود منها فهذا عالمنا المعاصر يشهد للوط بهذه العبارة فهو يحترم القوي ويسحق الضعيف وخير شاهد على ذلك إيران التي تقف أمام الاستكبار العالمي بمنهاج إلهي وأسلوب محمدي وشعار علوي فالقوة هي التي تنجز الأعمال على الواقع فطأطأ لها الأعداء رؤسهم وانحنى أمامها بكل إجلال وتقدير.

---

(١) الميزان: ١٠ / ٣٢٧ بتصرف.
(٢) هود: ٧٩.
(٣) هود: ٨٠.

ومرة أخرى نرجع إلى لوط بعد أن عجز عن كل الوسائل للإصلاح والتغيير واستعد قومه للهجوم على ضيوفه عند ذلك ولوط في حيرة شديدة، كشف الضيوف عن هوياتهم وعن الذي ينتمون إليه.

* (وقالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحدا إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم) * (١)

وجاء في الروايات أن لوط عندما سمع بذلك قال للملائكة لماذا لا تعجلوا فيهم فإنهم لا يستحقون الحياة فقالوا له:

* (أن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) *

وهذا يكشف عن الآلام التي يحملها لوط من هؤلاء الذي يريد أن يعجل لهم العقوبة وهو نبي من الأنبياء فقالوا للوط لا تحزن إن العذاب لا مفر منه لهؤلاء ففي الكافي بإسناده عن أبي يزيد عن أبي عبد الله في حديثه يذكر فيه صفة قوم لوط قال: - فكابروه يعني لوط حتى دخلوا البيت فصاح به جبرائيل فقال يا لوط دعهم فلما دخلوا أهوى بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قول الله عز وجل * (فطمسنا على أعينهم) * (٢)

وسار لوط مع من آمن معه من أهله في ذلك الليل المظلم من دون أن يلتفتوا ليروا ما أصاب القوم من عذاب عظيم.

* (لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) * (٣)

فهذا المقطع من القصة يبين لنا أن القوم لم يؤمنوا قط سوى لوط وأهله إلا امرأته فيا لها من شهوة جرتهم إلى الويلات والكوارث ولم تترك لأحد فيهم عقل يفكر فيه، فنخرج اللذين آمنوا وحل العذاب وجاءت الرسل لتحمل للقوم نتائج أعمالهم حجارة أعدت لهؤلاء الذي مات الضمير فيهم وأصبحت الشهوة الجنسية سنة مألوفة لديهم كالأكل والشرب " وحينما يموت الضمير وتغتال الفطرة وينقض المجتمع على عقله ويئد أحاسيسه الإنسانية يولد مجتمع الجريمة وإذا كانت هذه

---

(١) هود: ٨١.
(٢) الكافي عن الميزان ج ١٩، ص ٨٥.
(٣) الذاريات: ٣٣ - ٣٧.

الصفات لا تجتمع إلا بطاغوت بطاش، فإن كل فرد من أفراد المجتمع المتسم بهذه السمات سيكون طاغوتا وتكون الأمة بؤرة طواغيت، وغابة وحوش ومجتمع جرائم فتاكة... وهكذا كان مجتمع لوط (عليه السلام) " (١).

* * *

---

(١) ١ - حركة المجتمع في التاريخ: - محمد مهدي الخالدي ص ١٧١.

يوسف
هو ذا يرى في طفولته تلك الرؤيا التي أرست في قلبه قواعد النبوة المبكرة لهذا الصبي
(إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) (١)
يا لها من رؤية تنبئ عن حدث عظيم ورجل عظيم، فهو ينجح قبل أن يمتحن، فهو المخلص الذي اصطفاه الله لنفسه ومن هنا تبدأ قصة يوسف (عليه السلام) بما لها من أبعاد
عديدة ومن أوضحها مصداقا الإمداد الإلهي ليوسف (عليه السلام) مذ كان طفلا وحتى صار
ملكا وقائدا لمجتمع من المجتمعات، وبالمقابل كان يوسف عبدا خالص العبودية لله تعالى فاستحق ذلك المقام والقرب من أريكة العزة والجلال، فكان المنطق الإلهي على لسانه إذا تكلم، وفي ضميره إذا صمت، فهو يوسف الذي واجه كل مغريات الدنيا، واجه الشيطان بكل أساليبه واجه امرأة العزيز وهي تدعوه إلى ارتكاب الفاحشة، واجه الأجواء المشحونة بالعواصف المهيجة للغرائز واجه الشهوة الجنسية التي سقط فيها الكثيرون ونجى منها المخلصون وتجاوز الامتحان وفاز بالقرب.
ونحن نتكلم عن يوسف (عليه السلام) سنفصل قصته إلى دروس متعددة نستفيد منها في
حياتنا العملية بما لها من مواقف حية متحركة ومشاهد هي مورد ابتلاء الجميع في الكثير من زوايا الحياة فهذه الدروس نتمنى أن تشمل أغلب المراحل التي مرت بها قصة يوسف ومراحل حياته إلى أن وصل إلى سد الحكم وصار الرجل الأول في الدولة وقاد المجتمع نحو الله بعد تلك الابتلاءات المتتالية ابتداءا من الجب وانتهاءا بدعوة المرأة له لارتكاب الفاحشة وهو في بيتها.
فقسمنا البحث هنا إلى دروس وهي:
الدرس الأول: - يوسف في الجب
الدرس الثاني: - يوسف والسيارة
الدرس الثالث: - يوسف والعزيز
الدرس الرابع: - يوسف وامرأة العزيز

---

(١) يوسف: ٤.

الدرس الخامس: – يوسف ونساء ممصر
الدرس السادس: – يوسف والسجن
وأخيرا ونحن نبحث في هذه القصة ستراود القارئ فكرة مدى اتصال هذه القصة بسياسة الأنبياء الذي هو عنوان هذا البحث، فسنقول إن القصة لا علاقة لها بسياسة الأنبياء إنها قصة شخصية جرت بين يوسف وبعض الذين يحيطون من حوله فما هو وجه الربط بين العنوان الرئيسي للبحث ومقاطع القصة؟؟
الجواب: – الرجل السياسي له بعدان في التعامل مع الناس أو بعبارة أخرى أن هناك وسيلتان يمتلكها السياسي في التأثير على الناس وإيصال الفكرة إليهم.
البعد الأول: – نظري يقتصر على التوجيه والإرشاد واتباع الأساليب البيانية في سرعة إيصال الأفكار إلى الناس ومدى قدرته لفظيا على التأثير في أسماعهم وإخضاعهم للفكرة التي يتبناها.
البعد الثاني: – عملي وهذا من أكثر الأبعاد تأثيرا على الناس، ومحتواه التجسيد الواقعي لكل ما يقوله الإنسان من أوامر ونواهي فهو عندما ينهى عن المنكر لا بد أن يكون هو أولا منتهي عنه فعلا حتى يستطيع أن ينهي الناس عنه قولا، لأن الناس لهم أنس بجزئيات المسائل وتطبيقاتها عند من يتكلم فيهم ويوجههم فهم يتأثرون بشخصيته وأفعاله قبل أقواله وألفاظه فمن أراد أن يغير فلا بد أن يتغير حتى يخضع عقول الناس إليه.
فيوسف (عليه السلام) يفرغ دعواه اللفظية بقوالب عملية يجسدها في حياته قبل أن ينقلها
للآخرين وما أبلغ هذه السياسة وأرفعها عند الناس، فالخضوع لها أسهل والاتباع إليها أطوع.
الدرس الأول
يوسف في الجب

لم يكن حب يعقوب ومداراته ليوسف (عليه السلام) نابعة من عاطفة فقط بل كانت إعدادا
لرجل يحمل ميراث النبوة ميراث إسحاق ويعقوب، فهو حب إلهي ليوسف لحمله لتلك المواصفات والمزايا التي جعلت أخوته يحسدونه على ما هو عليه فوسوس لهم الشيطان وسولت لهم أنفسهم أمرا يكشف عن مدى حقدهم وحسدهم ليوسف (عليه السلام).
* (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين) * * (قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) * (١)
فأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب وجاءوا إلى إبراهيم الذي تفرس في أعينهم الشر والمكيدة، جاءوا بعنوان العطف والحنان على يوسف وهم يعلمون أن أباهم لا يأمن عليه بين أيديهم والشاهد على ذلك أنهم قالوا له * (ما لك لا تأمنا) * فهي خير دليل على أنهم كانوا يعلمون أن يعقوب (عليه السلام) لا يأمن على يوسف بينهم ويصور لنا
القرآن ذلك بقوله:
* (قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) * (٢)
فقدموا المواثيق لحفظه والعهود على سلامته والعناية به إلى أباهم الذي يشرف على إعداد يوسف للنبوة واستلام المنصب الإلهي كوريث لآبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولما صمتوا انتظارا لجواب أبيهم ابتدأ يعقوب بالجواب وافتتحه بالخوف على يوسف فقال:
* (قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) * (٣)
فكان الذئب هو الوسيلة الوحيدة التي يحتج بها يعقوب على أبناءه ومنعهم من أخذ يوسف معهم إلى حيث يقصدون ولكنهم لم يتراجعوا عما أجمعوا عليه وأصروا على ذلك بشتى الطرق والوسائل * (قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) * (٤) فردوا على يعقوب مخافته من الذئب، فلم يجد بدا من أن يرسله معهم ليرتع ويلعب وسار معهم وبحمايتهم كما زعموا وما أن ابتعدوا عن أباهم حتى

---

(١) يوسف: ٩ - ١٠.
(٢) يوسف: - ١١ - ١٢.
(٣) يوسف: ١٣.
(٤) يوسف: ١٤.

أجمعوا على تنفيذ ما خططوا إليه من إخفاءه في نهاية الأزمة النفسية التي يعيشونها كل يوم بل كل لحظة يرون فيها أباهم يهتم بأمر يوسف، فأجمعوا على رميه في البئر لينهوا كل ذلك بهذا العمل الإجرامي الذي يعتبرونه نفيا لشخصه وإنساءا لاسمه وإطفاءا لنوره وتذليلا له وحطا لقدره وهو في الواقع تقريب له إلى أريكة العزة وعرش المملكة وإحياء لذكره وإتمام نوره ورفع قدره وهم لا يشعرون بتلك الحقيقة (١)

* (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) * (٢)

فرموه في تلك الغيابات التي لا يخرج منها إلا من كان مع الله في كل لحظات، حياته فهي المرحلة الأولى للإعداد التي واجهها يوسف (عليه السلام)، إنها مرحلة الظلام الدامس

التي تجعل الإنسان يشعر بالخوف بمجرد تصور تلك المواقع، ولكن أنبياء الله عاشوا تحت كنف الله تعالى ورعايته فهم الرسل الذين يمثلون الله بين خلقه وهم الواسطة بين الأرض والسماء وهم حبل الله الممدود الذي يهدي من تعلق به ويضل من لم يتمسك به.

فجلس يوسف في ذلك الجب مطمئنا بالمعية الإلهية التي لم تفارقه أبدا وعاد أخوته إلى أباهم، عادوا وعلامات الحزن الكاذب تملأ وجوههم، عادوا وهم يحملون القميص الملطخ بالدماء الذي أصبح حجة دامغة عليهم.

* (وجاءوا أباهم عشاءا يبكون قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) * * (وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) * (٣)

وبالفعل مثلما قالوا * (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) * فلم يؤمن لهم، وتوجه يعقوب (عليه السلام) إلى ربه ليلهمه الصبر على هذا الخطب الجليل، ففي هذا المقطع من

القصة يتضح لنا أمران:

الأول: - المعية الإلهية حتى في أحرج المواقف صعوبة، والتعلق القلبي الحقيقي

---

(١) الميزان: ج ١١، ١٠٢.

(٢) يوسف: ١٥.

(٣) يوسف: ١٦ - ١٧ - ١٨.

بالله تعالى وقطع كل روابط التعلق الأخرى بغير الله تعالى إنه التوحيد الخالص الذي لا تشوبه أي شائبة، فهو المنجي من الهلكات، وفاتح أسباب الدوائر المعنوية بعدما تغلق كل الأسباب المادية، فهذا يوسف (عليه السلام) جلس في ذلك الجب ولا يوجد أي
بصيص أمل في الخروج سوى الله تعالى فانغلقت كل الأسباب المادية أمامه وأين الأسباب والمكيدة كانت من إخوته الذين هم أقرب الناس إليه، إذ لم يبقى معه إلا الله الذي اكتفى به يوسف عن غيره من الناس فأرسل له السيارة ومكنه من الخروج ليهيئ له جب آخر وهكذا حتى يتسلم مقاليد الأنبياء.
الثاني: – الصبر وهو أسمى درجات الإيمان، فصبر يعقوب ليعطينا درسا في الصبر بجنب الله تعالى فقال * (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) * (١)
فالصبر هي الوسيلة الوحيدة التي تتحطم على أعتابها كل البلايا وتتحول كل المآسي إلى محطة للعبور إلى الأمن والإيمان فلا مستقر للنفوس إلا بصبرها، فهذا يعقوب طلب العون من الله في أمر لا يستطيع أن يفعل اتجاهه أي شئ.
الدرس الثاني
يوسف والسيارة
* (وجائت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون) * (٢)
جاءت تلك القافلة لتحمل يوسف إلى دار العزيز بتخطيط إلهي مسبق، جاءت لتضع حلقة من حلقات النبوة في حياة يوسف (عليه السلام) فجاءوا يطلبون الماء من ذلك الجب
الذي سكن فيه يوسف بدون أي حركة منتظرا أمر الله فيه فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه، فأحس يوسف بحسحسة الدلو حتى وصل إليه فتعلق فيه ليخرج من باطن

---

(١) يوسف: ١٨.
(٢) يوسف: ١٩.

الأرض إلى ظاهرها ويبدأ بالسير نحو الله للتكامل واستلام القيادة، فخرج يوسف (عليه السلام) من البئر وما أن وقع بصر الساقي على يوسف أطلق تلك الصرخة التي بشرت
الكون بولادة نبي جديد من أنبياء الله تعالى.
* (قال يا بشرى هذا غلام) * (١)
غلام يخلص البشرية ويجرها إلى الله تعالى، غلام نبئ بنبوته وهو طفل صغير، غلام ابيضت عينا يعقوب عليه، غلام تقر به عين العزيز.
* (وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون) * (٢)
إنها بضاعة تجلب النفع للبشرية وتنقذهم من الهلاك الذي سيصيبهم بتلك السنوات العجاف ولكن..
* (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) * (٣)
فاختلف المفسرون هنا في ارجاع الضمائر في (وشروه) (وكانوا) على ثلاث اتجاهات:
الأول: - أرجعوها إلى السيارة والمعنى أن السيارة الذين أخرجوه من الجب وأسروه بضاعة باعوه بثمن بخس ناقص وهي دراهم معدودات قليلة.
الثاني: - ارجاع الضمير إلى أخوة يوسف (عليه السلام) والمعنى أنهم باعوا يوسف من السيارة بعد أن ادعوا أنه غلام لهم سقط في البئر وهم إنما حضروا هناك لإخراجه من الجب ويبيعوه من السيارة.
الثالث: - أول الضميرين للأخوة والثاني للسيارة والمعنى أن الأخوة باعوه بثمن بخس دراهم معدودات وكانت السيارة من الراغبين عنه يظهرون من أنفسهم الزهد والرغبة لئلا تعلوا قيمته أو يرغبون عن اشترائه حقيقة لما يتحسسون أن الأمر لا يخلو من مكر وأن الغلام ليس فيه سيماء العبيد (٤)
وأي الاتجاهات كان صحيحا المهم أن عملية الإعداد بدأت تأخذ مراحلها المتسلسلة في حياة يوسف لتجعله نبيا يقود المجتمع برغم كل البلاءات التي واجهها في حياته.
الدرس الثالث

---

(١) يوسف: ١٩.
(٢) يوسف: ١٩.
(٣) يوسف: ٢٠.
(٤) الميزان: ج ١١، ص ١١٠.

يوسف والعزيز
* (وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) * (١)
هذا النص القرآني لم يبين مواصفات المشتري بشكل واضح بل بينته آيات أخر من كتاب الله العزيز مثل:
* (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) * (٢)
فهذا النص الكريم يدل على أن المشتري كان عزيزا في قومه مقصودا لهم في الملمات حائزا على مراتب اجتماعية وسياسية يفقدها غيره.
فالمشتري كان عزيزا في قومه والبضاعة كانت أشرف وأنقى بضاعة على وجه الأرض فهي نبي من الأنبياء، فتفرس هذا العزيز في وجه يوسف منازل العلو والرفعة والكرامة لأن يوسف " كان ذا جمال بديع يبهر العقول ويوله الألباب وكان قد أوتي مع جمال الخلق حسن الخلق صبورا وقورا لطيف الحركات مليح اللهجة حكيم المنطق كريم النفس نجيب الأصل " (٣)
يا لها من مواصفات حيرت العقول ملكها يوسف (عليه السلام) فجعلت القلوب تقبله إذا أقبل
والعيون تتبعه إذا أدبر أنه يوسف الذي أمر العزيز امرأته أن تكرم مثواه بعدما كانت العادة أن العبيد من الطبقة الثانية في المجتمع، وبالفعل تولت تلك المرأة مراقبة مراحل حياته، فبقي يوسف عند العزيز لينفعه في تدبير شؤون رعيته ويديم عليه عزته في قومه، فهذه نعمت الله التي أنعمها على يوسف فجعلته يتربى في أحضان الأشراف بعدما كان في غيابات مظلمة وشاءت الأقدار أن يكون يوسف محط أنظار العزيز بعدما بخسوا فيه الثمن.
* (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) * (٤)
الدرس الرابع

---

(١) يوسف: ٢١.
(٢) يوسف: ٣٠.
(٣) الميزان: ج ١١، ص ١١٣.
(٤) يوسف: ٢١.

يوسف وامرأة العزيز
* (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) * * (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون) * * (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك
لنصرف عنه السواء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم) * * (قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) * * (فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين) * (١)
.
إنها قصة كاملة بقوالب لفظية تكشف لنا عن حقيقة الموقف الذي سيطر على الأجواء الخانقة التي كانت في ذلك المكان، يوسف وامرأة العزيز، هذه المرأة التي تابعت وأشرفت على كل المراحل التي اجتازها يوسف في حياته منذ أن دخل بيتها وحتى هذه اللحظة التي راودته بها عن نفسها، فيا لها من قصة تصور لنا مدى الحب الذي تكنه هذه المرأة ليوسف (عليه السلام) بحيث أعدت العدة وغلقت الأبواب وهيأت
الأجواء ليوسف (عليه السلام) حتى يتركب الفاحشة فقال لها * (معاذ الله) * معاذ الله من كل
سوء وفحشاء * (إنه ربي أحسن مثواي) * ونحن هنا لسنا مفسرين وبحثنا ليس بحثا تفسيريا بقدر ما هو تحديد لمواقف الأنبياء وسياستهم في الحياة مع من يتعامل معهم فلا نريد الخوض في معركة ارجاع الضمائر، فالمهم هو يوسف (عليه السلام) ذلك
الهارب من الفحشاء والسوء إلى رحمة ربه فقال لها * (معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) * (٢)
فيا عجبا لبعض المفسرين الذين يحاولون أن يتهموا يوسف في هذه المواقف ولكن " ما أحسن من قال من بعض أهل التفسير في ذم أصحاب هذا القول (قول اتهام يوسف بالهم في المعصية) إنهم يتهمونه (عليه السلام) في هذه الواقعة وقد شهد ببرائته

---

(١) يوسف: ٢٢ – ٢٣ – ٢٤ – ٢٥ – ٢٦ – ٢٧ – ٢٨ – ٢٩.
(٢) يوسف: ٢٣ – ٢٤.

وطهارته كل من لها تعلق ما بها فالله سبحانه يشهد بذلك إذ يقول * (إنه من عبادنا المخلصين) * والشاهد الذي شهد له من أهلها إذ قال * (إن كان قميصه قد من قبل....
الخ) * إلى آخر الآيتين والعزيز إذ قال لامرأته * (إنه من كيدكن) * وامرأة العزيز إذ قالت * (الآن حصحص الحق إنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) * والنسوة إذ قلن * (حاشا لله ما علمنا عليه من سوء) * ويوسف ينفي ذلك عن نفسه وقد سماه الله صديقا إذ قال * (إني لم أخنه بالغيب) * (١)
فكل هذه الشهادات التي لا تقبل الشك والريب تشهد بأن يوسف برئ من الواقعة كما برئ الذئب من الدم الذي على قميصه ولكن للأسف بعض من لا علم له بحقيقة الأنبياء وخصوصا الذين أخذوا دينهم من غير أهل البيت (عليهم السلام) اتهموا يوسف
بما اتهموه من الافتراءات والكذب عليه.
ونعود ثانيا إلى يوسف وتلك المرأة التي شحنت الجو بإثارة الغريزة نعود إلى تلك المواقف لنستلهم الدرس منها في حياتنا العملية يوما، فبعد أن أكملت المرأة دعوتها إلى الفاحشة امتنع يوسف عن ذلك العرض وأنى له هذا وقد رأى برهان ربه رآه بحقيقة القلب وبحضور الله تعالى معه وفي كل مواقفه، فلا ينظر إلى شئ إلا ونظر إلى الله قبله، فهذه هي حقيقة الأنبياء (عليهم السلام)، فهذا الامتحان الإلهي الذي مر به يوسف
(عليه السلام) امتحان عسير لأن الأجواء كانت كلها مهيئة للفاحشة وخصوصا أن هذه المرأة
كانت قريبة منه ليلا ونهارا وهو في بيتها، فنجح يوسف في هذا الامتحان واجتاز المرحلة فأراد أن يهرب فأسرعت هذه المرأة خلفه لتمنعه من ذلك لما في قلبها من شوق إليه، فها هي تريد أن تجذبه لرغبتها وهو يريد أن يتوجه إلى الله تعالى وصار السباق بين الطرفين بين امرأة العزيز التي لم تفكر إلا برغبتها وبين يوسف الذي يعيش مع الله في كل لحظات حياته، وأخيرا مدت يدها نحو قميصه لترجعه عن الله تعالى وتأخذه إلى هوى الشيطان فمزقت ذلك القميص الذي بقي عليها حجة طول الدهر إلى يوم القيامة، وعجيب أمر هذا القميص مع يوسف، فأخوته لطخوه بالدماء ليخفوا أمره وامرأة العزيز تمزقه لتحرف يوسف عن طريق الحق والعدل، فبقي هذا القميص يبرئ يوسف دائما وحجة على أعدائه، حجة على إخوته وعلى امرأة العزيز التي قدته من دبر ليشهد ليوسف بأنه برئ مما تريد وترغب، فلنعد إلى

---

(١) الميزان ١١ / ١٣٦.

القرآن الكريم ونتابع القصة معه ولنرى ماذا كانت نتيجة السباق نحو الباب؟ كانت النتيجة إن السيد أنهى السباق بوقوفه وراء الباب فصور لنا القرآن ذلك وقال * (وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم) * (١) رفعت الدعوى وأعطت الحكم بالترديد بين السجن والعذاب والأليم، أما يوسف صمت في أول اللحظات احتراما وأدبا لمقام العائلة التي تربى فيها ولكن عندما سمع بذلك دافع عن نفسه * (قال هي راودتني عن نفسي) * (٢) دفاعا عن نفسه قالها وإلا أدب النبوة يمنعه في أن يشتكي للعزيز في أول الأمر، وأخذت القصة تتفاعل والملكة تبحث عن الشهود فالمرأة ثبتت الادعاء ويوسف ينفي حتى قال القرآن * (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) * (٣) وفتشوا عن ذلك وجدوا القميص قد من الخلف ليرد التهمة على امرأة العزيز ويفلج الحق ويزهق الباطل، فحكم العزيز عليها وقال * (إنه من كيدكن آن كيدكن عظيم) * (٤)

الدرس الخامس

يوسف ونساء مصر

* (وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين) * * (فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) * * (قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين) * (٥).

مشهد آخر من مشاهد الأثارة في قصة يوسف (عليه السلام) وسط حفل نسائي دعت إليه

امرأة العزيز عندما سمعت الكلام السائد واللوم عليها من قبل النساء فأرادت أن تثأر لنفسها من هذا الكلام وتوقف الشائعات السائدة وخصوصا تلك التي بين النساء

---

(١) يوسف: ٢٥.

(٢) يوسف: ٢٦.

(٣) يوسف: ٢٦ - ٢٧.

(٤) يوسف: ٢٨.

(٥) يوسف: ٣٠ - ٣١ - ٣٢.

فأعدت ذلك الحفل الكبير ودعت فيه نساء الأشراف على ما هن عليه من العلو والرفعة في المجتمع فأجلستهن في قاعة معدة لذلك ومجهزة بوسائل الضيافة * (وأعدت لهن متكئا) * (١) وجئ بالفواكه وأعطت لكل واحدة سكينا وبينما هن في ذلك الحفل البهيج حتى توجه الأمر إلى يوسف من تلك المرأة * (أخرج عليهن) * فجاء نور الله الذي أطفى كل أنوار القاعدة المعدة وأشرقت الشمس في وسط الغرفة وأطل يوسف (عليه السلام) الذي أحرق قلب امرأة العزيز عند ذلك نظرت النسوة إلى وجهه
الكريم وهو يتلألأ نورا كأنه القمر في ليلة تمامه فتعلقت به القلوب وانجذبت إليه العيون فأخذ الدم يسيل من أيديهن وهن لا يشعرن بذلك * (وقلن حاشا لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) * فتلك شهادة أخرى على تبرئته، عندها تكلمت المتهمة بالقضية * (فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راوده عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمرة ليسجنن وليكونن من الصاغرين) * (٢).
فاشتدت المصيبة على يوسف وأصرت المرأة على إشباع رغبتها منه واختنقت الأجواء فلا منقذ ليوسف إلا الله تعالى الذي كان يتوجه إليه في الجب عندها * (قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصبو إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن وإنه هو السميع العليم ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) * (٣) وأخيرا في السجن ولننظر ماذا في السجن؟.

الدرس السادس

يوسف والسجن

يا لها من رحلة شاقة، محنة تكمل محنة، وبلاء يوصل بلاء، حتى وقع في السجن لتبدأ مرحلة أخرى من مراحل حياته في مراحل الإعداد والتكوين لقيادة الناس نحو الله تعالى، فهذا السجن الذي دعوت ربك أن يرزقك إياه، ليجنبك متاهات الضلال، فهو درس اختيار الطاعة رغم الصعوبات، وتفضيل السئ على الأسوء،

---

(١) يوسف: ٣١.
(٢) يوسف: ٣٢.
(٣) يوسف: ٣٤ - ٣٥.

فلقد كانت الحياة التي تحيط بيوسف حياة صعبة جدا لما فيها من مطاردة تلك المرأة ليوسف ليلا ونهارا لتظفر بما تريد فطلب يوسف من ربه السجن ليتخلص من العذاب ومن هذه المرأة التي أصبحت لا هم لها إلا إضلال يوسف وإغوائه فاستجاب له ربه في دعوته ودخل السجن * (ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما أني أراني أعصر خمرا وقال الآخر أني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) * (١)

فأحدهما رأى رؤيا وهي عصر العنب ليصير خمرا والآخر كذب في رؤيته وقال كأني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه، فطلبوا من يوسف أن ينبأهم بتأويل ذلك أنه من الصالحين الذين في وجوههم سيماء المحسنين، عند ذلك صرح يوسف بدعوته إلى الله، فبدأ من السجن ليهدي صاحبيه إلى ربه، ويستغل الفرصة الذي هو عليها * (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي أني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) * (٢)

استغل الفرصة ليكشف لهم عن حقيقة دعواه، والسبب الذي من وراءه أودع في السجن، وهذا يكشف عن مدى عمق الصفات الإيمانية في نفوس الأنبياء، لأن من العادات السائدة إن الإنسان عندما يواجه ظروف صعبة ينحني قليلا حتى تمر العاصفة، وتخمد عنده بعض الملكات وهذه الحالة وإن كانت ليست مطردة ولكنها غالبة عند طبيعة البشر، أما يوسف (عليه السلام) جعل السجن مهدا للتبليغ وانطلاقة إلى المجتمع، فها هو يقيم لهم الأدلة على إمكانياته وقابلياته ولم ينسى في هذه اللحظات ربه الذي علمه وأعده وأعطاه كل شئ * (ذلكما مما علمني ربي) * فهذه رحمة إلهي شملتني ولا استقلال لنفسي بها، يا صاحبي أني تركت القوم وهم يعبدون الأصنام متفرقة كافرين بالمعاد مشركين بالله فتركتهم.

* (واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) * (٣)

اتبعت دين التوحيد والحق والعبودية الخالصة لله تعالى، وأنا شاكر لنعم ربي، هذه النعم التي تشمل كل الناس ولكنهم للأسف لا يشكرون، وأخذ يقيم لهم الأدلة على

---

(١) يوسف: ٣٦.
(٢) يوسف: ٣٧.
(٣) يوسف: ٣٨.

وحدانية الصانع عز اسمه * (يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) * (١)
فهو يرددهم بين اللا مركزية في إصدار القرار وبين مركزية إصدار القرار إن صح التعبير، فيقول لهم أيها أفضل الله الواحد الأحد الفرد الصمد أم أرباب متفرقون لا يعلم أحدهم بفعل الآخر، وهدفه من ذلك أن يبذر بذرة الشك في نفوسهم حتى تنبت ويخرجون بها إلى الناس ثم قال * (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) * (٢) ما هذه الأرباب والأصنام إلا ضلالات ابتدعتموها أنتم وملأتم بها عقولكم الفارغة فهي ضلالات لم يأمر الله بها ولا تقربكم إلى الله ولا دليل عليها لا من العقل ولا من النقل وأما حكم هذا الكون وتدبيره يرجع إلى أمر الله فيه، فهو الذي يسن السنن ويرسم لنا معالم الدين ليكون دينا قيما حاكما على الناس، فهذه هي الكلمات الأولى التي أطلقها يوسف (عليه السلام) عما يحمل
هو في داخله من دعوة إلى مجتمعه، أطلقها وهو في سجنه الذي أودع فيه ظلما وعدوانا وما أن أكمل تلك النفحات الإلهية في تبليغه شرع في تأويل أحلام صاحبه في السجن فقال لهم:
* (يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان) * (٣)
قضي الأمر وإن كان أحد من هؤلاء كاذب في رؤياه، وبالنتيجة مثلما قال لهم يوسف عندما خرجا من السجن لاقيا مصيرهما الذي حدده إليهما يوسف فهذه واحدة من البينات التي جاء بها (عليه السلام).
يوسف يرسم الخطة الاقتصادية

---

(١) يوسف: ٣٩.
(٢) يوسف: ٤٠.
(٣) يوسف: ٤١.

يفتخر الإقتصاد الحديث بمختلف مدارسه (الاشتراكية والرأسمالية) وغيرها بكشفه الكثير من النظريات الاقتصادية التي كانت خافية على المجتمعات لما للاقتصاد من أهمية فهو يمثل عصب الحياة البشرية (١) فرسم الخطة الاقتصادية لم تكن بالهينة، بحيث يستطيع أي شخص يقوم بها ويوفر لمجتمعه المكاسب المادية، فهي تقوم على أساس حسابات وتنبؤات اقتصادية مسبقة داخل السوق ومعرفة وحذاقة بما تؤول إليه الأمور بعد ذلك. ونلاحظ أيضا أن كثير من النظريات الاقتصادية باءت بالفشل عندما ارتطمت بالواقع فوجدت أفكارها تناقضه ولا تنسجم معه فبدأت مساوئ تطبيق تلك النظريات (٢) ونحن هنا لا نريد أن نخوض في عيوب تلك الأنظمة الاقتصادية لأنه ليس من مهام بحثنا ولكن سقنا الكلام كمقدمة لفهم مدى الإنجاز الاقتصادي الذي حققه يوسف (عليه السلام) لمجتمعه عندما رسم لهم تلك الخطة

المتوسطة الأمد التي حفظت المجتمع من خطر الهلاك والسقوط فلنتابع القصة من القرآن الكريم الذي نقل الخطوط العامة منها * (وقال الملك أني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون) * (٣)

فهذه رؤيا الملك التي حملت إلى قومه الانذار من الكوارث الاقتصادية التي ستحل بالبلاد، رأى في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسنبلات خضر وأخر يابسات، وطلب من الملأ أن يفسروا هذه الرؤيا العجيبة التي تدل على معنى معين البتة فأجابوه جواب من لا يعلم وذلك بأنه من اختلاط الأحلام بعضها ببعض ونحن لا نعلم إلا تأويل الرؤيا الصالحة فنطق الساقي بأنه قادر على أن يجلب لهم التفسير الصحيح لهذه الرؤيا ولكن بشرط أن يرسلوه إلى ذلك العبد الصالح الذي يتلألأ وجهه نورا فأعطوا الساقي الفرصة لجلب الجواب الذي سيجعل من يوسف رجلا أولا في الدولة يدبر أمورها ويسير شؤونها، فجاء إلى السجن ليحمل البشرى إلى قومه ووصل إلى يوسف * (يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم

---

(١) الشؤون الاقتصادية في الكتاب والسنة.
(٢) أساسيات الإقتصاد أبو القاسم عمر الطبولي وآخرون.
(٣) يوسف: ٤٣.

يعلمون) * (١)
فأجابهم يوسف على الفور بدون أن يتخلل الجواب توجيهات وإرشادات تضمنتها رسالته كما في الجواب الأول مما يدل على أن يوسف ينتظر ذلك السؤال حتى يصل فيه إلى سدة الملك ويرث الرسل في قيادة المجتمع فأجابهم:
* (قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون) * * (ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) (٢)
وكما هو واضح جواب مباشر على الرؤيا من دون أن يتخلله أي كلام، لأن هذا الجواب كان موجها للملك وشأن الملوك إنكار الدعوات الطارئة في المجتمع، فأراد يوسف أن يبين للملك مقدرته على تفسير الرؤيا وخلاص قومه مما ينتظرهم من تلك الكوارث الاقتصادية التي تصيب الشعوب على حين غفلة عادة، فرسم لهم في جوابه خطة اقتصادية تنقذهم من الهلاك وما أن سمع الملك الجواب رد عليه:
* (وقال الملك إئتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم) * * (قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشى لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) * * (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) * * (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم) * (٣)
فاستغل يوسف الفرصة ليهيئ لنفسه الأجواء كاملة للقيادة واستلام المنصب الريادي في الدولة، استغله ليعلن عن براءته من السجن الذي أودع فيه، ومن الاتهامات التي وجهت إليه، فقال لرسول الملك ارجع إلى ربك وقل له ليتفحص الأمر ويبث في القضية التي من أجلها سجنت وما أن سمع الجواب أرسل وراء النسوة فلم يستجوبهن كثير حتى اعترفن بخطيئتهن في مراودة يوسف واعترفت امرأة العزيز أمام الملأ بأنها راودته عن نفسه فلم يستجب لها، ومن ذلك نستل درسا جديدا من حياة الأنبياء (عليهما السلام) ألا وهو مواصفات القائد الرسالي فلا بد أن يكون نزيها طاهرا

---

(١) يوسف: ٤٦.
(٢) يوسف: ٤٧ - ٤٨ - ٤٩.
(٣) يوسف: ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣.

من كل التهم التي تلصق به وأن يبحث عن الطرق والوسائل التي من خلالها يكشف لمرؤوسيه أنه برئ مما يقال بشأنه.
وأخيرا نجى يوسف من التهمة وأظهره الله على الخلق بعدما أرادوا أن يخفوه في غيابات السجون ليقرر لهم أنه لم يخن ذلك الرجل الذي كرمه وفتح له بيته وآمنه على عائلته وما مصير الخائنين إلا الظلال والتيه وعدم الهداية وفي نهاية المطاف شعر يوسف بأن القوم برأوه من دون مساعد يساعده على ذلك فقال لهم بأن هذا الابتلاء الإلهي برأني منه الله تعالى ولا استقلالية لي في كل الأمور التي أمر بها.

يوسف وقيادة المجتمع

* (وقال الملك إئتوني به أستخلفه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) * * (قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) * * (وكذلك مكنا ليوسف
في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع آجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) * (١).

وأخيرا أطلق الملك كلمته وجاءت المرحلة الآخرى من مراحل الأعداد الإلهي ليوسف ليستلم مناصب الحكم وقيادة المجتمع ويصبح في أعلى قمة من قمم التسلسل الاجتماعي بعدما كان تحت الأرض وفي الجب، هذه هي إرادة وأمر الله وقدرته، فأعطاه الملك المكانة في الدولة والعلو والرفعة واستأمنه على كل شئ في شؤون المملكة فلما علم يوسف بذلك طلب من الملك أن يكون قيم على خزائن الأرض وقيم على أمر المملكة فإنه حفيظ لما يستأمن عليم قادر على إدارة الشؤون العامة. فلا بد للقائد من صفة الحفيظ يحفظ الأموال والأعراض وكل ما يتعلق بمسئولياته وعليم قادر على الإدارة وسياسة البلاد وسيرها بالشكل الجيد، وأخيرا استلم يوسف المنصب ليعدل وليأمر بالعدل ويرسم للناس سياستهم الاقتصادية والاجتماعية وكل ما يتعلق بأمر الدولة. والأشراف عليها، وهذه هي الرحمة الإلهية وهذا هو أجر المحسنين وأجر الآخرة أكثر ولمثل هذا فليعمل العاملون.

---

(١) يوسف: ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧.

يوسف وأخوته
* (وجاء أخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ولما جهزهم بجهازهم قال إئتوني بأخ لكم من أبيكم إلا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين) * * (فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون) * * (وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلم يرجعون) * * (فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون) * * (قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين) * * (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يأبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير) * * (قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتنني به إلا أن يحاط بكم فلما أتوه موثقهم قال الله على ما تقول وكيل) * * (وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شئ إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) * * (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شئ إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون) * * (ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني إنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون) * * (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون) * * (قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم) * * (قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين) * * (قالوا فما جزاءه إن كنتم كاذبين) * * (قالوا جزاءه من وجد في رحله فهو جزاءه كذلك نجزي الظالمين) * * (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجت من نشاء وفوق كل ذي علم عليم) * * (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون) * * (قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه وإنا نراك من المحسنين) * * (قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون) * * (فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم

موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين) * * (ارجعوا أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك قد سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين) * * (وسئل القرى التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون) * * (قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم) * * (وتولى عنهم وقال يا أسفي على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) * * (قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إن لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون قالوا أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتقي ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين) * (١) .

وأخيرا اعترفوا بذنبهم وخطأهم كما نقل لنا القرآن ذلك ونحن هنا إذ آثرنا على نقل القصة بالكامل لنستوفي الغرض منها ليتبين لنا النصر الإلهي الذي تحقق ليوسف وجعله أميرا على الناس وقيما عليهم، فجاءه إخوته عندما أصابهم القحط وطلبوا المتاع فوجوده أميرا بعدما طرحوه في الجب صغيرا، فعندما دخلوا عليه تفرس في وجوههم وعرفهم ولكنهم لم يعرفوه فأعطاهم ما يريدون بعدما سمع قصتهم بالكامل وإن لهم أخ آخر عند أبيهم فطلب منهم أن يأتوه به وإلا قطعت عنهم الأرزاق والأمتعة وفرض عليهم حصارا اقتصاديا، فرجعوا إلى ديارهم وهم في حيرة من أمرهم لأنهم يعلمون أن أباهم لا يأمنهم على ولده كما أمنهم على يوسف وخانوا الأمانة وأخيرا فاتحوا أباهم بهذا الأمر ورفض كما يتوقعون رفض العرض لتخوفه على ولده وألحوا عليه فأخذ منهم المواثيق والعهود حتى أرسله معهم فجاءوا إلى يوسف فدخلوا عليه وانفرد (عليه السلام) بأخيه وعلمه بالأمر وأعد العدة لكي يبقى أخيه معه ونجح في ذلك من دون أن يعرفوا أنه يوسف وبقي أخاه معه وعادوا

---

(١) يوسف ٥٨ - ٩١.

إلى أباهم فقصوا له القصة فرجع يعقوب إلى الله كما رجع في أمر يوسف (عليه السلام) من قبل
وأمرهم أن يبحثوا عن يوسف وأخاه وشاءت الأقدار أن يعودوا إلى يوسف عندها تعارفوا جميعا واعترفوا بذنبهم وبالتالي جلب أباه إليه ليكون على قرب منه فهذه هي منة الله التي منها على يوسف وأخيه وأبويه بعدما اجتاز كل الابتلاءات الإلهية لتؤهله إلى حمل ميراث النبوة ميراث إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام).

* * *

شعيب (عليه السلام)
ثالث أنبياء العرب بعد هود وصالح هو شعيب ورابعهم قائدهم محمد (صلى الله عليه وآله)، فشعيب
أرسل إلى مدين إلى تلك المنطقة التي استشرى فيها الفساد الاقتصادي واستغلال الناس بعضهم لبعض مما أدى إلى انهيار العلاقات الاجتماعية فيما بينهم وسبب ذلك العقائد والأفكار المنحرفة التي يتبعونها بحيث جعلتم يشعرون بالحرية المطلقة للفرد بشكل لا توازيها أي حرية أخرى وهذا التفكير بحد ذاته يؤدي إلى انهيار البنية الاجتماعية للمجموع فإن للمجتمعات حقوق عامة على كل فرد أن يطأطأ الرأس أمامها لما فيها من مصلحة عامة تهم الجميع وتخدم المجتمع فلا بد من احترامها وإن تعارضت مع الحريات الشخصية للأفراد، فإذا تجاوز أفراد المجتمع تلك الحرية العامة واعتدوا عليها سلب من المجتمع الأمن والاطمئنان وبالتالي

شاعت الجريمة وفسد الاجتماع.
فشعيب أرسل إلى قوم اعتدوا على الحرية العامة للمجتمع بحيث شعر كل فرد منهم بحرية تجعله ينال ما يريد بأي طريق كان بمجرد أن يكون مالكا وهذا المعنى واضح من خلال جواب القوم لشعيب (عليه السلام).
* (قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد) * (١).
فهم يثيرون ذلك بعنوان الاستفهام والاستهزاء ويثيروا في نفس شعيب الحالة الاجتماعية التي يمتلكها في المجتمع عله أن يتراجع عن دعوته فيقولون له إنك حليم رشيد ما دهاك تنهانا عما يعبد آباؤنا ونحن أحرار نفعل بأموالنا وممتلكاتنا ما نشاء فإنهم منحوا لأنفسهم حرية فجاءهم شعيب ليصحح لهم تلك المفاهيم الخاطئة السائدة في ذلك المجتمع.
المشاكل السائدة في مجتمع شعيب
المشكلة الأولى
إن لكل مجتمع مشاكل خاصة به ينفرد عن غيره من المجتمعات فهذا مجتمع شعيب كان سائدا فيه الانحراف الاقتصادي بشكل واضح وطاغي في كل التعاملات اليومية من حيث البخس وعدم الوفاء بالكيل والوزن فلهذا الانحراف سلبياته على المجتمع ومنها.
١ – تكون طبقة ثرية جدا لا عمل لها إلا استغلال الناس.
٢ – ازدياد الطبقات الفقيرة في المجتمع.
٣ – تناقض القوة النقدية شيئا فشيئا مما يؤدي إلى انخفاض القوة الشرائية لكل فرد من أفراد المجتمع.

---

(١) هود: ٨٧.

٤ – ظهور حالة من التوتر الاقتصادي تسيطر على السوق بحيث تشله تماما إذا استمر مثل هذا النوع من الانحراف.
٥ – فقد الأمان والاطمئنان للسوق من قبل الناس.
فهذه المشاكل تفرض نفسها على المجتمع بحيث تصيره مجتمع جريمة وفساد.
المشكلة الثانية
شعور أفراد المجتمع بحرية خاصة تسيطر على الحرية العامة بحيث تؤدي إلى تلاعب القلة بالكثرة وتحكم الأثرياء الذين كسبوا ثرواتهم بدون عمل في المجتمع مما يؤدي إلى تسلطهم على رقاب الناس ومقدراتهم وبالتالي التلاعب بالثروات الاجتماعية العامة التي أعطاها الله للمجتمعات لا إلى الأفراد.
المشكلة الثالثة
سيطرة القوة العشائرية والقبلية على المجتمع بحيث يصبح القانون هو قوة العشيرة من دون أي رادع داخلي يردع الناس عن ارتكاب كل شئ فإذا مات الضمير أصبح المجتمع مجتمع أشباح مخيفة ليلا راكدة نهارا تحركه الغرائز والشهوات النابعة من نفس الإنسان الغير خاضة إلى العقل مطلقا.
النور الإلهي
جاء شعيب والمجتمع على هذه المشاكل، جاء بروحية الأنبياء تلك الروحية التي لا تهاب شئ أبدا إلا الله تعالى وهيبتها هذه لا خوفا ولا طمعا بل من الله لما هو عليه من عزة وسلطان وأوضحت الروايات ذلك بالنسبة إلى شعيب وبكاءه خوفا من ربه

حيث قال شعيب في ذلك (١) " أنت تعلم ما أبكي شوقا إلى جنتك ولا فرقا من النار ولكن حبك بقلبي " فبهذه الروحية جاء ليحمل إلى قومه رسالة الأنبياء ويمد يده إلى ذلك المجتمع الذي سيطرت عليه تلك المشاكل المذكورة لينقذه من الضلال والانحراف، فنجده تارة يقيم لهم الأدلة ويبين لهم بأن أعمالهم هذه مخالفة لأصل الفطرة البشرية التي فطر الله الخلق عليها وما عملهم هذا إلا إفسادا للمجتمع وتضييع للحقوق.

* (ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين) * (٢).

وأخرى يهددهم بعذاب الله تعالى الذي لا مفر منه إلا إليه.

* (وأني أخاف عليكم عذاب يوم محيط) * (٣).

وثالثة يرغبهم في طاعة الله ورحمته وتجنب غضبه واتباع أمره والانتهاء بنواهيه.

* (بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) * (٤).

" أساليب شعيب في حل المشاكل "

الأسلوب الأول في حل المشكلة الأولى

* (إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على الله رب العالمين أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين) *.

كل مصلح عندما يريد أن يحل أي مشكلة يبين المزايا التي يتمتع بها الأسلوب الجلي للمشاكل فهذا شعيب قبل أن يبدأ بالحلول الاقتصادية العادلة شرع في بيان الخطوط العريضة للرسالة وهدفه من وضع الحلول، وبين لهم الجهة التي هو مرسل من قبلها وطلب منهم التقوى وإطاعته فيما يقول وإلا فإن المشاكل ستتزايد يوما بعد يوم.

---

(١) كنز العمال ١١: ٤٩٨.

(٢) الشعراء: ٨٣.

(٣) هود: ٨٤.

(٤) هود: ٨٦.

فأمرهم بالتقوى وعبادة الله وحده لما في هذا التبليغ من إنماء للضمير الداخلي لدى الإنسان فهو يحاول أن يبذر البذرة لتنمو في نفوسهم ويبدأ وازع الخوف والرقابة الداخلية، بحيث تجعل الفرد يخاف من داخله وهذا التغيير أقوى من أي سيطرة خارجية مهما كانت وسائلها وأساليبها، وبين لهم بعد ذلك أنه لا يستقل في دعوتهم هذه من أجل مكسب مادي بل هو رسول من الله تعالى لا يطلب الأجر على ما يفعله بل الأجر على الله تعالى الذي أرسله بالرسالة وأمره بالتبليغ وبعد ذلك كله شرع في وضع الحلول للمشكلة التي يعانون منها ألا وهي السرقة العلنية التي سادت بينهم في كل ما يكيلون أو يوزنون فصار ذلك البخس سنة يتميزون بها عن كل الشعوب وعادة جارية بحيث بلغت إلى مستوى الاستغراب عن الكف عنها فقال لهم شعيب.

* (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم) * (١).

فلا بد من الوفاء بالكيل كي يصح التعامل، ولا بد أن يزنوا بالميزان المستقيم كي يطمأن كل واحد إلى الآخر في الأخذ والعطاء حتى تشيع بينهم الرحمة والحب والتعاون والشفقة وبذلك يستقر السوق وتأخذ الحياة مجراها الطبيعي.

ثم دعاهم إلى عدم النقص في الوزن إذا عاملوا الناس لما فيه من فساد وإفساد للتجمع الإنساني، فإن الفطرة اقتضت أن يكون التعامل صحيح مستقيم وإلا اشمأزت منه ورفضته والذي يتحدا الفطرة يتحدى قانون السقوط الحتمي الذي لا تخطئ نتيجته أبدا ودائما، فالله تعالى خلق الخلق وفطرهم على حب العدل والمساواة وقبح الظلم وهذه المسألة من المسائل العقلية ولذلك سميت بالتقبيح والتحسين العقليين (٢) فالوزن المستقيم وعدم بخس الناس من لوازم العدل ومما يوافق الفطرة البشرية والظلم والبخس واستغلال الناس مما يخالف الفطرة ويتحداها.

ولم يستطيع شعيب أن يستر خوفه على قومه إذا أصروا على ما هم عليه من الانحراف الاقتصادي الذي يؤدي بالتالي إلى الفساد الاجتماعي والسياسي فقال لهم * (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم

---

(١)

(٢) أصول العامة للفقه المقارن، محمد تقي الحكيم ص ٢٨٢.

بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط) * (١).
فهو يقرر لهم النعمة الإلهية التي يتمتعون بها والوفرة الاقتصادية التي يعيشونها وسعة الرزق التي يوصفون بها فليس بحاجة إلى الاستغلال والبخس والنقص في الميزان إذ هناك رادعين يردعاكم عن معصية الله.
الأول: أنكم في خير ولا حاجة لكم في بخس أموال الناس من غير سبيل حلها.
الثاني: أن وراء مخالفة الله يوم محيط يخاف من عذابه (٢) فالنعم الإلهية موجودة ولا حاجة لكم في نقص الكيل والوزن واتقوا الله وخافوه لأن عذابه لا يرد ولا يدفع سواء كان عذاب الاستئصال أم عذاب يوم القيامة.
الأسلوب الثاني في حل المشكلة الثانية
* (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي) * (٣)
المشكلة المعالجة هنا مشكلة الحرية المطلقة من دون تحديد وهذه مشكلة الرأسمالية في عالمنا المعاصر فهي حرية مطلقة لا تعارضها أي حرية ولا يقف أمامها أي تقليد أو قيم.
فعندما واجه القوم شعيب (عليه السلام) بالاستهزاء لأنهم لا يتصورون أي قانون قادر على أن
يحدهم ويقيدهم، واجههم شعيب بأسلوب هادئ ينطلق من روح الرسالة والخط العام الذي يتحرك فيه السماء بعدما بين لهم أنه مرسل وصاحب بينة، فبدأ أولا بنفسه في الجواب على المشكلة فقال لهم إني لا أرتكب ما أنهاكم عنه أبدا ولا أريد من دعوتي هذه إلا الإصلاح بكل معانيه، الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.
ونحن عندما نبحث عن شعيب لا نترك هذه النفحات الإلهية التي تطلق على ألسن الأنبياء (عليهم السلام) تمر مر السحاب فلا بد من الوقوف للتعلم من حياتهم سلام الله عليهم،
فهذا شعيب (عليه السلام) يقرر قاعدة أساسية من قواعد التبليغ إلى الله تعالى وهي أن المبلغ
الرسالي لا بد أولا أن يغير نفسه قبل أن يغير الآخرين وأن يكون مصلحا لداخله ومحتواه قبل ألفاظه وكلماته فلا يدعو إلى شئ لا يعتقد به ولا ينهى عن فعل يمارسه فلا بد من الاندكاك بما يقول حرفيا لأن الناس اعتادوا على أن يلاحظوا

---

(١) هود: ٨٤.
(٢) الميزان: ١٠: ٣٥٠.
(٣) هود: ٨٨.

تصرفات الرجال قبل أقوالهم وأفعالهم قبل ألفاظهم ويتأثروا بكل مصلح طابق فعله قوله.
فنعود إلى مجتمع شعيب عندما رفض دعوة نبيه، واستهزأ بها ظانا أنه حر فيما يتملك، ولا يعتبر بأي تشريع كان، ومن أي جهة صدر، أما شعيب ظل يدعو إلى التوازن في التعامل فلا يؤمن بالحرية المطلقة التي لا يحدها شئ بل يؤمن بحرية تضمن للفرد خصوصياته وللمجتمع قوانينه، فهو يحاول إصلاح التطرف في الحرية الفردية على حساب المجتمع وجعلها في إطار التوازن الخاضع للرقابة الذاتية أولا من خلال إحياء الضمير داخل النفس الإنسانية وثانيا الرقابة الخارجية من المجتمع، ليحدد من تصرفات أولئك الذين يعيثون بمقدرات وثروات الشعوب.
الأسلوب الثالث لحل المشكلة الثالثة
القبلية والتعنصر من العادات السائدة في المجتمعات القديمة بحيث يؤطروها بقانون " أنصر أخاك ظالما أو مظلوما " وهذه من المشاكل الأساسية التي واجهت الرسالات بشكل عام، فالمجتمعات تنظر إلى المصلحين وأصحاب الدعوات الطارئة التي تخرج عن المألوف من خلال أقوامهم وعشائرهم التي ينتمون إليها، فإذا كانت كبيرة وقوية تهاب ويهاب المصلح المنتمي لها وإلا فلا ولهذا بدأت دعوة الرسول (صلى الله عليه وآله) من عشيرته أولا وسيتبين ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.
إذا القوة هي السائدة في المجتمعات، فهؤلاء عندما نظروا إلى شعيب وإلى عشيرته وجهوا له هذا الكلام:
* (وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) * (١)
فأعطوا لرهطه قيمة اجتماعية معينة وأعلنوا أن ذلك هو الذي يمنعهم من مواجهة شعيب بالقوة والرجم، فشعيب أراد أن يصحح هذا المفهوم السائد بينهم.
* (قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط) * (٢).
فهو يوبخهم على الالتزام بما هو الظاهر أمام الأعين أما المخفي المدعم بالأدلة لا

---

(١) هود: ٩١.
(٢) هود: ٩٢.

يعيرون له أهمية فيقول لهم إن الله تعالى هو المالك والقادر فما لكم تمنعكم قوة بسيطة ولا تمنعكم تلك القوة المطلقة؟ لماذا تجعلون الله وراء ظهوركم؟ فالله أعز وأكرم وأجل من أن تتغافلوه فهو ربي وهو عليم بما تفعلون.

* (ويا قوم اعملوا على مكانتكم أني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب) * (١)

فلم يرعبوا شعيب (عليه السلام) بتهديدهم هذا بل هو الذي قلب المواجهة وهددهم بعذاب الله

تعالى وتحداهم بأن لا يكف عن رسالته مهما كلف الأمر إلى أن يأتي أمر الله فيهم.

مدين ترد على شعيب (عليه السلام)

بعد أن عجزوا من أثناء شعيب من دعوته لجأوا إلى أساليب الجهالة والضلال، لجأوا إلى إلى أساليب الأشرار البعيدة عن منطق العقل والبرهان ومنها.

١ - التربص بالمؤمنين

* (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا) * (٢).

قطع الطرق من صفات المجرمين واللصوص، فها هم قوم شعيب يحاولون قطع طريق المؤمنين حتى لا يصلوا إلى شعيب ويتعلموا أحكام الله منه فراحوا يقعدون للذين آمنوا في الطرقات ويصدوهم عن سبيل الله ويحاولون جرهم للضلال الذي هم فيه، فنهاهم شعيب عن ذلك وأمرهم أن يذكروا نعم الله تعالى التي أنعم بها عليهم وأن يتجنبوا طريق الظلال وإلا تكون النتيجة هي ما آلت إليه الشعوب التي سبقتهم في الضلال والإضلال.

---

(١) هود: ٩٣.

(٢) الأعراف: ٨٦.

٢ – النفي
* (وقال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين) * (١) فالنفي والتهجير والإخراج هي العصى التي يلوح بها الجبناء، فلوح بها اليوم إلى شعيب والذين آمنوا معه وهذه العصى لها ميزة وهي أن الطرف المقابل لا بد أن يكون مؤمنا بقضيته بشكل لا تثنيه كل الوسائل عنها وإلا إذا كان لديه أدنى شك فسوف يتراجع ويتقهقر، وهذه الوسيلة بالذات ترفع عادة لا لتهديد الأنبياء لما يعلمون منهم أنهم لم يتراجعوا مهما كانت النتائج بل ترفع بوجه المؤمنين بالرسالة بدرجة أساس، فهي وسيلة من وسائل الحد من انتشار الرسالات فأما التهجير أو الإيمان بالدين القومي الذي خرجوا منه أي عبادة الأصنام التي اعتادوا على الخضوع أمامها من دون حجة أو برهان فما كان جواب شعيب والذين آمنوا معه إلا بالنفي القاطع الذي لا يساوره أدنى شك بما آمنوا به.
٣ – محاولة إظلال المؤمنين
* (وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) * (٢) تهديد آخر لأصحاب شعيب كمحاولة لإضلالهم والخروج بهم عن طريق الحق والصواب وهذا التهديد عام وشامل لكل الوسائل والأساليب التي سوف يتخذونها بحقهم فالخسران من الجاه والمال والوطن والأهل وجميع ما حبب للإنسان، فأصر المؤمنون على إيمانهم والبقاء تحت راية شعيب مهما كانت النتائج ومهما تعددت الأساليب والوسائل.
٤ – افتراءات أخرى

---

(١) الأعراف: ٨٨.
(٢) الأعراف: ٩٠.

* (وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين) * (١)
وسائل أخرى متممة للوسائل الجبانة السابقة هدفها إسقاط الشخصيات وتضعيف موقفها داخل المجتمعات حتى يمكن النفوذ من خلال ذلك إلى تحطيم ما يدعو له وهمهم في هذه الافتراءات صرف الناس عن التوجه إلى الرسالة ورسولها فيرمونه بالكذب حتى لا تطمئن النفوس ولا تهدى إليه القلوب ثم رموه بعد ذلك كله بالسحر فقالوا له * (وقالوا إنما أنت من المسحرين) * (٢) واختلف المفسرون في كلمة المسحرين وما المراد منها على ثلاثة أقوال:
١ - أي من سحر مرات عدة حتى غلب على عقله.
٢ - المسحر من له جوف فهو كناية على أنه يشر مثلكم.
٣ - السحر الرئة أي أنه متنفس مثلما تتنفسون (٣).
وأي الأقوال أرادوا، ما قصدوا منه إلا إضلال الناس عن الرسالة وعدم الالتحاق بها .
وأخيرا وقف شعيب من قومه كما وقف الأنبياء من قبل عندما عجزوا عن دعوة مجتمعاتهم، وقف ليرفع حصيلة عمله لله تعالى * (قال رب أعلم بما تعملون) * (٤) لينهي دعوته بعد العمل الدؤوب والكدح المستمر نحو الله تعالى.
ومن ذلك نستل درسا آخر ألا وهو أن على العامل في سبيل الله أن يقدم المقدمات ويهئ الأسباب للإيمان بالله أما النتائج فهي ليست من مهام عمله.
النتيجة النهائية لقوم شعيب (عليه السلام)
وأخيرا طلبوا العذاب بأنفسهم وبألسنتهم بعدما طلبوه بأفعالهم وتصرفاتهم المشينة

---

(١) الشعراء: ١٨٦.
(٢) الشعراء: ١٨٥.
(٣) الميزان: ١٥: ٣٢٧.
(٤)

مع شعيب (عليه السلام) فإنكارهم وتكذيبهم ومواجهتهم شعيب هو طلب فعلي للعذاب، فلما
شعروا أن ذلك لم ينفع مع شعيب ليكف عنهم أرادوا أن يعجزوا شعيب في دعوته لهم فطلبوا العذاب الذي طالما يهددهم به، طلبوا العذاب لأنهم لا يفقهون ما هو عذاب الله وصرحوا هم بذلك.
* (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول) * (١).
فهم لا يفقهون رسالة الله تعالى إليهم ولا ينصاعون لأمره فراحوا وراء انحرافاتهم وضلالاتهم وأبدعوا في صنع مقدمات العذاب ولم يبقى إلا أمر الله الذي هو النتيجة النهائية لفعلهم وعند ذلك جاءت النتيجة.
* (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين) * (٢).
فأصبحوا أجسادا بلا أرواح وجثث هامدة تنخرها حشرات الأرض بعد ذلك
الاستكبار والعناد ويكفينا في وصف العذاب الذي حل بهم الروايات الواردة فعن ابن عباس (رضي الله عنه) (٣).... حتى قال فأرسل الله إليهم سحابة فأظلتهم فأرسل عليهم في
بيوتهم السموم وفي طريقهم الشمس الحارة وفي القرية فجعلوا يخرجون من بيوتهم وينظرون إلى السحابة التي أظلتهم من أسفلها إلى أن قال... ثم أرسل على أهل القرية من تلك السحابة عذابا ونارا فأهلكتهم وانتهت القصة بانتهاء هؤلاء.
مجتمع فرعون
* (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين) * (٤).
يدل هذا النص على وجود فرقتين على الأقل في مجتمع فرعون والفرقتان هم

---

(١) هود: ٩١.
(٢) هود: ٩٤.
(٣) كنز العمال: ١١.
(٤) القصص: ٤.

الأولى: – الأقباط
وقائدهم فرعون فكانوا يسوسون البلاد ويدبرون أمورها ومقدمين على غيرهم في الوظائف الإدارية والسياسية والاجتماعية في الدولة لما يمتلكون من موقع قيادي عالي داخل المجتمع ألا وهو فرعون.
الثانية بنو إسرائيل: –
" وإسرائيل هو يوسف الصديق (عليه السلام) وإنه حكم في قوم بموجب رسالة السماء فأطاعوه وأرسوا قواعد المجتمع المؤمن فسمي المجتمع (بني إسرائيل) ولكن ما لبثوا حتى تماهلوا عن دينهم وتفككوا وانحرفوا فأسرهم البابليون في معركة عظيمة ثم عادوا بعدها إلى مصر وهناك استعبدهم الفراعنة والأقباط " (١)
فالمجتمع إذا متكون من طبقتين أحدهما قائده وعزيزه، والأخرى مقوده وذليله تعاني من سيطرة الأقباط وبطشهم وفسادهم حتى وصل الأمر إلى أن يذبحوا الأبناء ويستحيوا النساء. فهذا هو الإطار الذي يحيط مجتمع فرعون بحيث صيره فرقا مختلفة حتى تتفرق كلمتهم ويسهل السيطرة عليهم والظاهر أن شعار " فرق تسد " قديم قدم الطغاة والمنحرفين الذين سيطروا على الشعوب بالقهر والغلبة متحدي ضمائر أبناءها ومقدساتهم.
موسى يتهيأ للمواجهة
* (قال ربي اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) * (٢).
موسى يطلب من ربه الوسائل الأولية للمواجهة بحيث يكون قادرا على تحمل

---

(١) حركة المجتمع في التاريخ: محمد مهدي الخالدي.
(٢) طه: ٢٥ – ٣٤.

الرسالة وتبليغها للناس على أكمل وجه ممكن فالوسائل هي:
أولا
* (قال رب اشرح لي صدري) * (١)
موسى (عليه السلام) وقبل أن يبلغ فرعون برسالة ربه فكر مع نفسه قليلا والسبب في هذه
الوقفة هي الرسالة ومدى نجاحها وتحقق الغرض المطلوب منها فرأى أن هذا الأمر يحتاج إلى إمكانيات ووسائل في حامله تيسر له المهمة وتحقق الهدف المنشود وأول هذه الوسائل هو شرح الصدر وتوسعته بشكل يكون قادرا على تحمل عظمة الموقف وجبرت المدعو للامتثال فهو يعلم أنه مرسل إلى فرعون وإلى الأقباط الذين علوا في الأرض واستضعفوا بني إسرائيل وجعلوهم طبقة ثانية في المجتمع يتحملون الواجبات ولا تمنح لهم أقل الصلاحيات فمجتمع مثل هذا يحتاج إلى صدر يملؤه الخالق صبرا وقوة وقابلية على التحمل وتبليغ الرسالة بشكل أفضل فطلب موسى كل ذلك من ربه.
ثانيا
* (ويسر لي أمري) *
الطلب الثاني هو تيسير الأمر في نفس موسى وهذا الطلب ليس من قبيل تخفيف المسؤوليات الملقاة على عاتق موسى (عليه السلام) بل هو من قبيل جعل موسى قادرا على
تحمل هذا الأمر العظيم وإيصاله إلى الناس، فهذا الموقف يفتح للعاملين في سبيل الإسلام طريق الدعوة إلى الله ووسائلها بالتوجه المنقطع والرجوع إليه في الشدائد التي يلاقونها في المجتمعات، وهذا الرجوع لغرض الاستلهام والتزود ورفع

---

(١) طه: ٢٥.

المعنويات والعودة ثانيا إلى المجتمع بروحية جديدة وقابليات أخرى تفوق القابليات السابقة لما حصلته من الله في الدعاء والتوجه الخالص.

ثالثا

* (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) * (١)

من وسائل التبليغ الأساسية هي البيان بأسلوب واضح وبكلام بليغ مؤثر في النفوس داخل إلى القلوب ومطوعها للاستجابة، فموسى (عليه السلام) يطلب لسانا فصيحا وبيانا

جزيلا حتى يؤثر في قومه ويحقق الهدف المطلوب منه ومن ذلك نستفيد عبرة أخرى من عبر الأنبياء ألا وهي تحديد مواطن الضعف والقوة في العمل والتبليغ إلى الله حتى يمكن تجاوزها وتحقيق الأهداف الرسالية المرجوة.

رابعا

* (واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري) * (٢)

أولا: وزيرا من أهله حتى يتقوى به ويحمي ظهره ويطمئن إليه وإلا إذا كان من غير أهله لا يحترق قلبه عليه ويغدر ويخون به فهذا درسا مهما من دروس النبوة وهو أن الإنسان يجب عليه أن يسعى قدر المستطاع في أن يحشد الطاقات التي تحيط به وخصوصا من عشيرته وأهله لأنها القوة التي يرتكز عليها.

والدرس الآخر في ذلك هو الابتعاد عن الأنانية وحب الذات فكثير من العاملين يضعون أنفسهم في مواقف لا يحسدون عليها فلا يعطوا صاحب الحق حقه ولا يضعوا الرجل المناسب في المكان المناسب بل يتفردوا في المسؤوليات وكأنهم قادرين على كل شئ حتى يبينوا للآخرين مقدرتهم على القيادة وحمل الأفكار ولكن سرعان ما تظهر الأخطاء والانتكاسات ويبدأون هم بالتبرير الذي هو منطق المنهزمين والمتراجعين والفاشلين بالحياة فهذا موسى (عليه السلام) مع نبوته يطلب من ربه

أن يكون له نصيرا حتى يعينه في هذه المسؤولية الضخمة وما هذا الطلب إلا إحساسا

---

(١) طه: ٢٧ - ٢٨.

(٢) طه: ٢٩ - ٣٢.

بالمسئولية وحفاظا على الرسالة وتحقيقا للأهداف بعيدا عن حب الذات والأنانية والمصالح الفردية التي تجعل الإنسان في ضيق يفكر من زاوية واحدة من دون نتائج.

بداية الصراع

* (إذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنئيا في ذكري اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) * (١)

بدأت رحلة موسى (عليه السلام) بهذه الكلمات وبدأ فصلا جديدا في حياة موسى بعد فصول

الأعداد والتكليم ومنح الرسالة، وهذا الفصل له مميزاته الخاصة به من ناحية قوة المواجهة بين الطرفين الداخليين في المعادلة.

فقوة المواجهة نابعة من الطغيان الذي يتمتع به فرعون والجبروت الذي عرف به حتى وصل الأمر إلى أن يضع نفسه موضع الإله عندما قال:

* (أنا ربكم الأعلى) * (٢)

وأما الطرفان الداخلان في المعادلة هم بنو إسرائيل ومعهم موسى ومن ورائهم عزة الله تعالى والطرف الآخر هم الأقباط ومن وراءهم فرعون وعزته.

وانتهى الأمر بموسى أمام فرعون ليبلغه رسالة ربه بعدما شد الله عضده بأخيه وزيرا له وسنرى إن شاء الله في فصل الحوار بين موسى وفرعون طبيعة المواجهة بين الطرفين والنتائج التي آلت إليها المقابلة ومدى استجابة بني إسرائيل لدعوة موسى (عليه السلام).

الحوار بين فرعون وموسى

من عادة الطغاة التجاهل لما هو في رأيهم أقل شأنا منهم فهذا فرعون الذي طغى في الأرض يحاول أن يتجاهل موسى في البداية ويعرض المسألة أمام الملأ بأنها

---

(١) طه: ٤٢ - ٤٤.

(٢) النازعات: ٢١.

مسألة بسيطة بينه وبين من يريد أن يناوئه في ملكه * (قال فمن ربكما يا موسى) * (١) فهذه العبارة تحمل بين طياتها تجاهل موسى وإشعاره بأنه لا حق له في دعوة فرعون وهو الرب الأعلى حسب ما يرى هو * (أنا ربكم الأعلى) * (٢).
فأجابه موسى (عليه السلام): * (قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) * (٣).
وبهذا الجواب غلق موسى كل أبواب الحيلة والمكر أمام فرعون بحيث صور له في هذا الجواب أصل الخلقة البشرية والاستعدادات الكامنة فيها فهو جواب شافي يوقف فرعون عن أي محاولة للنفوذ من خلال الجواب إلى سؤال آخر ولهذا لجأ إلى طريقة أخرى عندما رأى أن الأبواب قد غلقت أمامه بالكامل..
* (قال فما بال القرون الأولى) * (٤).
فهو يسأله عن حال الأمم والتجمعات القديمة التي كانت تعيش في الماضي السحيق وأراد فرعون من هذا السؤال ليرد على موسى دعوته في إثبات المعاد، ويفند اليوم الذي يجزى فيه المحسن بإحسانه والمسئ بإسائته، بعد أن فشل في إبطال الرسالة من رأس، فهو يلتف من طريق آخر ليبطل الرسالة لأنه عندما يبطل المعاد ويثبت عدم علم الله بالأمم السابقة يجر هذا الإبطال إلى إبطال كل القواعد التي ارتكزت عليها دعوة موسى (عليه السلام) فهو طريق متبع في المحاججات الكلامية بالسير من الخاص إلى العام.
وتصدى موسى لذلك * (قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) * (٥) فهذا جواب ألقم فرعون حجرا لأن موسى علق المسألة بالكامل على علم الله تعالى حتى لا يترك مجال لفرعون في تكرير السؤال عن أحوالهم وأشخاصهم وكيفية معيشتهم حتى يوقع موسى في فخ المحاججات الكلامية اللفظية التي لا طائل من وراءها فأجابه بجواب عام يحوي بين طياته كل ما يريد أن يستفسر عنه فرعون بعد ذلك بحيث سيطر موسى على الجو واستلم زمام المبادرة في الكلام بعدما سيطر على الأساليب اللفظية المتبعة في المحاججات الكلامية فأخذ يبشر بدعوته من دون أن يشعر فرعون بذلك فقال (عليه السلام): * (الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم
فيها سبلا وأنزل من السماء ماءا فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا

---

(١) طه: ٤٩.
(٢) النازعات: ٢١.
(٣) طه: ٥٠.
(٤) طه: ٥١.
(٥) طه: ٥٢.

أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى) * (١).
فصدع موسى بدعوته في مجلس فرعون وأمام وزراءه وأخذ (عليه السلام) يشرح فضائل
ربه على الإنسانية جمعاء فهو الذي خلق السماء والأرض وشرع فيهن أساليب وطرق العيش للبشر واستهزأ موسى بكل من لا يعبد الله بأنه ليس من أولي النهى والعقول بل هو ضال منحرف غير متبع للطريق القويم.
الهدوء الرسالي
الأنبياء جميعا يتميزون عن باقي المصلحين بالدعوة الهادئة إلى الحق من دون أي تشنجات تجر المقابل إلى العناد والاستكبار فالدعوة النبوية دعوة هادئة نابعة من روح الرسالة التي تتحرك في الهدوء العام للنبوات فهو صراع ولكن ليس فيه مزاج أو تدخل للأعصاب في كل مراحله، بل هو صراع الحق مع الباطل، فإن للحق دولة وإن كانت للباطل جولة، والذي له الدولة لا بد أن يرتكز على أسس رصينة قابلة للاستقرار والبقاء، أما صاحب الجولة يتعامل بتشنج الموقف ومزاج المواجهة وبأعصاب القبلية الساذجة، فجاء موسى بالهدوء والكلام الذي لا عصبية فيه، ولا مدخلية لطبيعة الإنسان في المواجهة به بل هو كلام إلهي أرسل به موسى لتحقيق الغرض، وما موسى إلا رسول أما الرسالة فيستمدها من الله تعالى بل حتى أساليب المواجهة يعلمه الله إياها * (فقولا له قولا لينا) *، حتى الأسلوب مستمد من الله تعالى في المواجهة بين الطغاة والأنبياء.
" وسائل فرعون في المقابلة "

---

(١) طه: ٥٣ - ٥٤.

أولا
إثارة النعرة القومية لدى المجتمع
* (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) * (١).
هذه الوسيلة لها أساليب متعددة بالإثارة في كل زمان ومكان، ففي عالمنا المعاصر تتخذ أسلوب الشعارات القومية والوطنية وغيرها من الألفاظ المنمقة ظاهرا والمليئة بالدسائس باطنا، يستخدمها المنتفعين بغرض إضلال عوام الناس الذين لاحظ لهم من المجتمع إلا باتباع العقل الجمعي بحسب التعبير الحالي في هذا الزمان وبحسب تعبير الروايات " ينعقون وراء كل ناعق ".
ففرعون يواجه موسى بهذه الطريقة وذلك بإثارة الروح القومية لدى مجتمعه فهو يقول لهم * (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى) * (٢).
فالذي لاحظ له من الدنيا بالتفكير ويسمع هذا الكلام يضع فرعون في مقدمة الأبطال القوميين بما أنه رافعا لشعار الدفاع والأرض والمقدسات، هذا الشعار الذي يتناغى مع عقول البسطاء من الناس لما فيه من خداع وتظليل.
فلا بد من إشاعة روح الثقافة لدى المجتمع وتوعيته بحيث يكون قادرا على مواجهة هكذا شعارات براقة التي لا يراد منها إلا الانحراف والإضلال.
ثانيا
السحر
* (فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت) * (٣)
ظن فرعون وملئه أن موسى يتمتع بميزات سحرية فائقة تجعله يتحدى فرعون بالقهر والغلبة، فلا ملجأ لهم إلا أن يكشفوا زيف موسى (عليه السلام) حسب ما يدعون
بحشر السحرة والمواجهة بهذه الوسيلة، فأعد فرعون كل ما يلزم لذلك بحيث كان واثقا بالانتصار وتحطيم هذه الأسطورة التي واجهته بالتحدي والتمرد والعصيان

---

(١) الشعراء: ٣٥.
(٢) طه: ٥٧.
(٣) طه: ٥٨.

فاجتمع السحرة وكان الموعد على بينة من الناس، فهذه هي إحدى وسائل المواجهة في التحديات بحيث يشكل النصر فيها اندثار للطرف المقابل تماما.

ثالثا

الترغيب

من الوسائل التي يتبعها الطواغيت هي الترغيب واستغلال الطاقات الفكرية في المجتمع لخدمة الانحراف وتسخير الطاقات الفكرية في المجتمع لذلك بحيث يؤدي إلى إضلال المجتمع بالكامل، لأن مسؤولية الوعي تلقى على عاتق المفكرين، فإذا كان المفكرون هم الذين سخروا للخدمة فلا يبقى في المجتمع من يناوئ الضلال والزيغ فتشيع الفاحشة وتبدأ الجهالات تسري في فكر ذلك المجتمع، فالحضارات تبنى بفيض المفكرين، والمجتمعات تنهض بأفكارهم فإذا أردت أن تقتل للمجتمع شخصيته وتدفن قيمته، أسلب منه كل طاقاته الفكرية، فهذا فرعون يحاول أن يجلب أكبر عدد من الطاقات السحرية لغرض إيقاف المد الرسالي لموسى وهارون، يجلبهم بالترغيب وإعطائهم المميزات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يفقدها أبناء المجتمع إلا من أراده الطاغوت وهذا المعنى يتضح بشكل جلي من خلال هذا النص القرآني حيث يقول:

* (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين) * (١).

خامسا

الترهيب

* (قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين) * (٢)

فهذا فرعون ينصب نفسه إلها على العالمين بحيث يكون هو العقل المفكر والمدبر لهم، وهو العين التي يبصر بها المجتمع، فيا له من طاغوت يسلب من المجتمع أدنى

---

(١) الشعراء: ٤١ - ٤٢.

(٢) الشعراء: ٢٩.

مراتب التفكير والشعور بحيث يصيره جمادا يحركه كيفما شاء، فكيف يحق لموسى أن يواجه هذا المنصب، فما عليه إلا الإطاعة والائتمار بأمره وإلا فالسجن ووسائل الترهيب المختلفة التي يمتلكها الطغاة ويتفنن المنحرفين في طرقها وكيفيتها وأساليبها.

شروط المواجهة عند موسى

الطرف الذي يفرض شروط المواجهة يكون أقدر من الطرف الآخر وأكثر إيمانا وقوة بما يمتلك من وسائل في عملية النزال فموسى يفرض الشروط على فرعون وقومه لغرض مواجهتهم وكشف زيفهم وانحرافهم فيا ترى ما هذه الشروط المفروضة؟.

الشرط الأول

* (قال موعدكم يوم الزينة) * (١)

اليوم المقصود هنا هو يوم عيد لفرعون وقومه يزينون فيه الأسواق والمحلات فهو يوم فرحهم ومرحهم فاشترطه موسى كيوم للمواجهة، ومن هنا ينكشف مدى إيمان موسى العميق والقوة التي يمتلكها بحيث يجعل المواجة أمام الناس جميعا ومع فرعون بما يمتلك من وسائل قوة وإضلال.

الشرط الثاني

* (وأن يحشر الناس ضحى) * (٢)

عند انبساط الشمس وأمام الملأ تقام الحجج وينتصف الحق من الباطل فهذا درس

---

(١) طه: ٥٩.

(٢) طه: ٥٩.

آخر لنا وهو إعداد الوسائل اللازمة للمواجهة بالتحدي وأمام الملأ لا خلف الكواليس فيعلمنا موسى (عليه السلام) درسا في المواجهة وهو أن الإنسان الرسالي لا بد أن
يطمئن أولا بشكل كامل بالإمداد الإلهي الغيبي وأن يتحدى الطغاة أمام الناس من دون خوف ولا تردد حتى تكون انتصاراته معلومة ومعروفة.

لقاء موسى بالسحرة قبل المواجهة

* (قال لهم موسى ويلكم لا تفترون على الله فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى) * (١).

فهو لقاء مهم بين المتحدين قبل التحدي والنزال، حتى يستطيع المؤمن بوسائله أن يزعزع الطرف الآخر، فهذا موسى يهددهم ويبين لهم مآل أعمالهم هذه ونتائجها فهي لا تجر لهم إلا الاستئصال والعذاب الأليم، فهو يبذر في قلوبهم بذرة الشك بما يعتقدون وأراد منهم أن يفكروا بعقولهم لا بعقل فرعون، وأن يبصروا بأعينهم لا بعينه، فهذه المقابلة استخدمها موسى كوسيلة لتشكيكهم بكل مقدراتهم أمام مقدرات الله تعالى ويتحداهم بربه الذي خلقه وخلقهم.

* (وتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى) * (٢).

وأخذت دعوة موسى تسري في قلوبهم لولا طغيان الأنا وحب الذات والغرائز التي جذبها فرعون بوعوده، لولا ذلك كله لاستسلموا إلى موسى بكل جوارحهم بعدد ما خضعت عقولهم لدعوته

بداية الجولة

اجتمع الناس وجئ بالسحرة وأعدت العدة للمواجهة والسحرة ومن له قرب من موسى ينتظر العطايا والهدايا وبدأت الجولة بالحرب النفسية الكلامية فقالوا لموسى

* (قالوا يا موسى إما تلقي وإما أن نكون أول من ألقى) * (٣).

فهذه وسيلة من وسائل الحرب النفسية لموسى لزعزعته وتراجعه عما يريد فهم

---

(١) طه: ٦١.
(٢) طه: ٦٢.
(٣) طه: ٦٥.

واثقون من قدرتهم وغلبتهم لموسى بهذا الكلام ولكن موسى لم يترك لهم أي حجة أو برهان أو أي وسيلة تشعرهم بأنهم همم الفائزين من دون رد مناسب لها، فرد عليهم القول * (قال بل ألقوا) * (١).

رد عليهم ليعلمهم بأنه واثق مما يقول ويتكلم، وإنه الفائز بالنتيجة وما أعددتم إلا حبال وعصي تخيلون للناس إنها أفاعي أما أنا معي ربي خالق كل شئ ومسخر بأمره كل شئ فأنا معي عزة ربي وأنتم معكم عزة فرعون وأخيرا رموا بحبالهم وعصيهم * (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) * (٢).

عند ذلك صدرت الأوامر لموسى من ربه.

* (وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) * (٣).

عندها فلج الحق وجاءت آية الله الكبرى لتفتح فاها وتلقف ما يصنعون بسحرهم وسجد السحرة لرب موسى ووقفوا أمامه وقفت العبد لسيده بعد ذلك الزهو والاستعداد الكامل للفوز والانتصار.

هذا هو نصر الله تعالى إلى من يشاء من عبادة.

* (فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى) * (٤).

فبعد الجولة مباشرة، وبعدما لقفت آية الله الكبرى ما صنعوا، وبعد العزة الفرعونية المتأصلة في نفوسهم، وبعد الخوف والبطش الفرعوني داخل المجتمع، بعد كل هذا سجد السحرة لرب موسى، لما شاهدوه من معجزات هم أعلم بها من غيرهم بأنه ليس سحرا ولم ينتظروا بسجودهم هذا أوامر فرعون (الذي انبت فيهم مخالب قهره وأحاط بهم بجوره) (٥).

وانتهت الجولة وانتصر موسى وبدأت النواة الأولى لمجتمع الرسالة بالتكون وأخذت الحضارة الجديدة أنفاسها الأولية لتبني صرحا جديدا على أنقاض الصرح الفرعوني القائم على أساس الإرهاب والانحراف عن جادة الصواب.

فرعون والسحرة بعد المواجهة مع موسى

---

(١) طه: ٦٦.
(٢) طه: ٦٦.
(٣) طه: ٦٩.
(٤) طه: ٧٠.
(٥) الميزان ج ١٦ ص ٧.

كان فرعون قبل المواجهة فرحا بما يملك من طاقات سحرية في قومه، قادرة على أن تدفع عنه التهديد، والدعوات الحقة الطارئة في المجتمع، بما تحمل من أفكار جديدة، ولكن بعد المواجهة مباشرة، وبعد انتصار موسى وتوجه السحرة إليه موسى والخضوع له لما شاهدوه من عجيب أمره، ثارت ثائرة فرعون عندما أحس بفقد السيطرة على المجتمع، وتقوض أمره داخل مجتمعه فعندما أحس بذلك كله لجأ إلى أسلوب الترهيب ولكن اليوم ليس مع بني إسرائيل كما كان سابقا بل مع السحرة الذين آمنوا بموسى.

* (قال آمنتم له قبل أن أذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) * (١).

من هذا النص القرآني تبين لنا مدى الحقد الذي يحمله فرعون على موسى وأصحابه الذي حاول أن يخفيه في بداية الرسالة بالحوار والسؤال وبالحجج الكلامية بحيث لا يعطي لموسى أهمية تذكر، فبعد أن علم أن المجتمع عدل إلى جادة الصواب واتخذ ربا غيره برز حقده بالتعذيب والتقطيع والصلب، فهي طريقة الطغاة المثلى لدى المواجهات وفي حالات الفشل ولكن هذا التهديد لم يأخذ مأخذه كما كان يهدد، ولا يرهبهم تهديد فرعون وجلاوزته، فجابهوا كلامه وتهديده بالاستهزاء والسخرية كما بين لنا ذلك القرآن الكريم بهذا النص..

* (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) * (٢)

" كلام بليغ في منطوقه بالغ في مفهومه بعيد في معناه رفيع في منزلته يغلي ويفور علما وحكمة " (٣).

عجيب أمر هؤلاء قبل قليل كانوا يحلفون بعزة فرعون ويرونه الرب الأعلى لهم، والآن يكونوا دعاة لموسى ولرسالته ويفصلون بين الحياة الدنيا والآخرة ويحددون قدرة فرعون بالحياة الدنيا وهم ليسوا أجساد حتى يخافون هذا الحكم الدنيوي بل

---

(١) طه: ٧١.
(٢) طه: ٧٢.
(٣) الميزان ج ١٥: ١٨٠.

هم أرواح وأجساد يخافون من الله الذي إليه منقلبهم ومثواهم.
وبدأت الرسالة تأخذ طريقها في الحياة وبدأ الالتفاف عليها من قبل الناس لما فيها من قابليات وإمكانيات قادرة على قلب الموازنة مع فرعون وجنوده، وهذا درسا آخر من دروس الحياة وهي المواجهة الإيمانية بروح صادقة مع الله عالية الهمة تنظر إلى ذلك اليوم الذي يحشر الناس فيه للحساب وأن لا تعير أي أهمية للنتائج الدنيوية الحاضرة لأنها زائلة وبهذا المنطق يتحقق النصر وتسموا الأمم وتبنى الحضارات.
ثم أخذ السحرة بعد ذلك كله زمام الدعوة إلى الله وأخذوا يبشرون برسالة السماء * (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهنا عليه من السحر والله خير وأبقى وإنه من أتى ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) * (١).
فيا لها من كلمات صعبة تثقل مسامع فرعون من هؤلاء الذين حشرهم لينتصر بهم، فانتصروا عليه وآمنوا بالله العزيز ليغفر لهم ما قدموا من خطايا وذنوب لفرعون وجلاوزته وتابوا إلى الله توبة نصوحة تمحي فيها أثار السيئات وتبدأ بها الحسنات لينالوا الجنات والحياة الكريمة الهانئة.
ولادة المجتمع الجديد
بدأت الدعوة إلى الله تأخذ طريقها داخل المجتمع، وبدأ وعلى العادة الفقراء والمستضعفين بالانضواء تحت رايتها، وبدأ المجتمع الرسالي يتكون من داخل

---

(١) طه: ٧٣ - ٧٦.

مجتمع فرعون لما فيه من مقومات كافية للنوى والبقاء من حيث إمكانياته المادية التي بدأت بوادرها بظهور آية موسى الكبرى حتى وصلت إلى انضمام السحرة لموسى فالمجتمع شعر بأن لموسى إمكانات كافية للنمو لتكوين وبالإضافة إلى ذلك الروح الإيمانية التي تعتبر أساس الانتصارات في كل المواجهات الرسالية فالإيمان يزرع في النفوس قابلية بشتى الظروف فالإنسان عندما يؤمن بفكرة معينة تجده يبدل كل ما يتملك من أجل إيصال تلك الفكرة إلى مستواها الحقيقي المطلوب.

صراع الحضارات

بدأت الحضارة الجديدة تتفاعل مع المجتمع، لكي تحكم قواعدها في نفوس الناس ، وتشيد صرحها أمامهم، ونمو الحضارات يكون في رحم الابتلاءات، فكل حضارة تكسب قوتها من قوة الابتلاء الذي مرت به، فكلما كانت الظروف صعبة التي تمر بها الحضارات كانت أقوى وأقدر على النمو والتفاعل داخل المجتمع.

فعندما انتصر موسى على فرعون بدأت دعوته تتسع بين الناس، لأن الإنتصار كان مخطط له بحيث صار على رؤوس الأشهاد وأمام الملأ، ولكن سيواجه عقبة تحاول إيقافه عن المد والمواصلة إلا وهي فرعون وأساليبه الجديدة ومرتزقته.

* (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) * (١).

فرعون ومن حوله أعدوا العدة للمواجهة، لكي تبقى حضارتهم وزهوهم في أوجه، ولكن أنى لهم هذا وموسى وأصحابه بدأوا يشيدون صرح حضارتهم، فأخذ الصراع يشتد بين الحضارتين، ففرعون وملئه يدافعون عن الماضي والقديم، وموسى وأنصاره يدافعون عن القيم الجديدة، ويحاولون بث روح الإيمان في نفوس الناس، واقتربت المعركة المصيرية من نقطة المواجهة واقترب الفريقان أحدهما من الآخر، ولم يبقى أمام موسى إلا البحر، فتزعزعت نفوس بني إسرائيل وأصابهم الرعب

* (فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون) * (٢) هنا يبرز الدور القيادي

---

(١) الأعراف: ١٢٧.

(٢) الشعراء: ٦١.

الشجاع بحيث يبث في نفوس الجند الاطمينان والإيمان بالنصر، فالقائد الناجح يختبر في هذه المواقع فإذا تزعزع مثل جنوده صار واحدا منهم فلماذا كان قائدا لهم؟ أما إذا ربط على جأشه وسيطر على الموقف بحكمته وأسلوبه القيادي استحق موقف القيادة بجدارة.

فموسى عندما لاحظ رعيته تزعزعت وأخذت تجبن بعضها بعض انبرى للموقف ليذهب الخوف.

* (قال كلا إن معي ربي سيهدين) * (١).

فهو يعلق اعتماده على قوة غيبية مطلقة، قادرة على أن تغير المواقف الحرجة، وتعكس الظروف القائمة، فهو يقول إن الله معنا في كل المواقف وسيهدينا إلى طريق النجاة والخلاص، وسيتحقق وعده فينا بالنصر والغلبة، وما أن أتم موسى كلامه حتى جاء التأييد الإلهي * (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) * (٢).

فجاء النصر الإلهي والحل الأخير وجاءت الإمدادت الغيبية التي علق عليها موسى الأمر، فأمرته أن يضرب البحر ليفتح له طريقا في وسطه، وسط الظلمات وكم لهذا الدرس من معاني بحيث يشعر المؤمنون بالله أن الغيب معهم في كل المواقف والشدائد ووسط الابتلاءات والظلمات يعبد لهم طريق الحضارة.

وأخيرا نجى موسى ومن معه من قبضة فرعون لتبدأ مرحلة جديدة لبني إسرائيل في الحياة.

الخطاب الإلهي لبني إسرائيل

* (يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) * (٣).

فهو تذكير لهم بالمراحل والمواقف الصعبة التي مروا بها، وبالنعم الإلهية التي منحت

---

(١)

(٢) الشعراء: ٦٣ - ٦٧.

(٣) طه: ٨٠ - ٨٢.

لهم حتى أنقذهم الله تعالى من الضلال والانحراف، فلا تكون تلك النعم وسيلة من وسائل استكبارهم فيسيئوا استغلالها وبالتالي تحمل نقمة الله عليهم فعليهم أن يشكروا كثيرا ولا يستعلوا في الأرض فيعودوا إلى الانحراف والاستعباد بعدما خرجوا منه فإن شكروا زادهم الله وإن كفروا ردهم للاستضعاف والتنكيل.

بداية الانحطاط عند بني إسرائيل

* (قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى إلى قومه غضبان آسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا فطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي) * (١).

هؤلاء الذين متعهم الله بنعمة ظاهرة وباطنة، والذي خلصهم من بطش عدوهم فرعون، والذي أنقذهم من الذل والعار والهوان، ما أن ابتعد موسى عنهم قليلا نسوا كل ذلك ولجأوا إلى عبادة الأصنام لجأوا إلى الجهل والانحراف وأقدامهم لم تجف من البحر الذي صار لهم بإذن الله كالطريق المعبد.

فهذا التراجع عن خط الرسالة سيجرهم إلى هاوية السقوط فهو يسيطر اليوم على بني إسرائيل ونبذوا كل الوصايا والأوامر الإلهية وراء ظهورهم فها هم يعبدون العجل الذي صنعه لهم السامري فهو جسد هامد خوت عقولهم على طاعته بعد كل تلك النعم الإلهية المتتالية وهذا شأن بني إسرائيل سابقا وحاضرا فلامكان لهم إلا في الذل والهوان بحيث أثبت تاريخ البشرية أن بني إسرائيل هم أكثر الأمم لجاجا وخصاما وأشدهم عتوا وعنادا وأبعد الناس عن الانقياد للحق وقلما تجد رذيلة إلا وتجد خلفها أصابع اليهود تحركها وتدعوا إليها (٢).

فتكبروا على ربهم ونبذوا قيم السماء مما يفرز حالة جديدة وهي تكبر المجتمع حتى على نفسه فيبدأ بالتمزق شيئا فشيئا ومن ثم السقوط الحضاري والانحطاط الفكري * (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) * (٣).

---

(١) طه: ٨٥ - ٨٦.

(٢) قصص الأنبياء، كامل شاكر مصطفى.

(٣) البقرة: ٦١.

خليفة موسى (عليه السلام)
إذا أردت أن تكشف مدى الوعي الحضاري عند أي أمة من الأمم فغيب عنها قائدها ، فإذا غاب القائد برزت الشخصية التي يتمتع بها المجتمع على حقيقتها، وبان مدى وعيهم وأسلوبهم في التفكير، وطريقتهم في التعامل وبمعنى آخر أن القائد في المجتمع هو القاتل لكل ما تحدث به النفوس على خلاف الموجود والمقرر داخل الشعوب، فهذا موسى (عليه السلام) عندما امتثل أمر الله تعالى خلف علي بني إسرائيل أخيه
هارون ليصلح أمورهم ويراعي شؤونهم، وذهب موسى بعيدا عنهم للقاء ربه، وما أن غاب قليلا اهتزت المشاعر وتحركت، وتزعزعت النفوس، وجاء السامري، وصنع لهم العجل، وخضع المجتمع له.
* (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار آلم يروا إنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين) * (١)
فانحرف المجتمع عن خط الرسالة، وبدأ نجم الحضارة يأفل نتيجة لهذا الانحطاط العقائدي الغريب بسبب غياب القائد وعندما رجع موسى (عليه السلام) وبخهم على هذا
العمل الشنيع.
* (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألوح وأخذ برأس أخيه يجره إليه) * (٢).
فاستنكر فعلهم هذا واستهزء بتلك العقول التي لم تفكر إلا بشهواتها ورغباتها عندما استضعفوا هارون وهددوه بالقتل إذا لم يذعن لهم.
* (ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين) * (٣).
تركهم هارون ولم يواجههم إلا بالبيانات الكلامية حفاظا على وحدتهم وعدم تفرقهم وإلا لو كانت المواجهة بين بني إسرائيل وهارون بغير ذلك لصنعوا ألف عجل ولعبدوا ألف صنم فحافظ على وحدتهم بحكمته وما العجل إلا زبد يذهب جفاء

---

(١) الأعراف: ١٤٨.
(٢) الأعراف: ١٥٠.
(٣) الأعراف: ١٥٠.

بمجئ موسى (عليه السلام) وبالفعل تحقق ذلك واعترف المجتمع بخطأه هذا.

التيه الحضاري

قضت حكمة الله تعالى علي بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة كبداية لبناء الحضارة الجديدة، ففاتحهم موسى بذلك بعد أن ذكرهم بنعم الله عليهم * (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) * (١).

فهذا التذكير هو تقوية لعزائمهم وهممهم في المواجهة المستقبلية حتى قال لهم * (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) * (٢).

فماذا كان جوابهم يا ترى؟.

* (قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) * (٣).

لم يستفيدوا من الدروس السابقة، فهم يريدون النعم بلا مقابل، وتعودوا على الفعل بلا انفعال، ونسوا بذلك كل نعم الله تعالى والانتصارات التي مدتها قوة الغيب المطلقة إليهم، وتناسوا مواقفهم السابقة، ورفضوا الصراع الحضاري مع من يناوئهم ويضدهم سوى ثلة قليلة آمنت بالرسالة شكلا ومحتوى.

* (قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) * (٤).

هاذان الرجلان الظاهر من خطابهم أنهم على اطلاع بخارطة المنطقة الجغرافية، بحيث يرشدوا قومهم إلى باب خاص يكون فاتحا للنصر، ويحقق الهدف المطلوب ولكن للأسف أصر القوم على عدم الدخول وعدم المواجهة * (قالوا يا موسى لن ندخلها أبدا ما داموا فيها) * (٥).

ومن هذا نستكشف الصفات الجبانة الكامنة في نفوس بني إسرائيل يتوارثونها جيلا

---

(١) المائدة: ٢٠.
(٢) المائدة: ٢١.
(٣) المائدة: ٢٢.
(٤) المائدة: ٢٣.
(٥) المائدة: ٢٤.

بعد جيل، فاليوم يقف الاستكبار العالمي بأجمعه وراءهم، وإلا فهم جبناء غير قادرين أن يدخلوا الباب سابقا فكيف يحققوا اليوم دولة على أرض المسلمين فعلى الشعوب والحكومات المهزومة أن تعيد النظر في حساباتها وتدعم الشعب الفلسطيني الذي يرزح تحت وطأة الاستكبار.

فالجبن موروث لديهم فها هم أبطال الحجارة اليوم يسطرون أروع الملاحم، ويقهروا العالم بأجمعه وبكل أساليبه وقواه، يقهروه بحجارة صغيرة أقضت مضاجعهم وستقضي عليهم إن شاء الله تعالى.

ونعود إلى بني إسرائيل وإصرارهم على عدم دخول الباب فقالوا لموسى:

* (إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) * (١).

فاجمعوا على عدم الدخول في مواجهة مع عدوهم، واستقر رأيهم على البقاء وعدم دخول الباب مهما كانت النتائج، فعاقبهم الله تعالى على فعلهم هذا بالتيه الحضاري والفكري * (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) * (٢).

فهذه النتيجة لم تكن خاصة بالذين انحرفوا وتراجعوا في معركة الحضارة بل كانت شاملة لكل الأمة وإن كان فيها صالحين ومؤمنين برسالة موسى.

* (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) * (٣).

فكانت النتائج:

١ - الجحود.

٢ - التمرد الجماعي.

٣ - الفسق.

٤ - التوقف الحضاري والتيه (٤).

---

(١) المائدة: ٢٤.

(٢) المائدة: ٢٦.

(٣) الأنفال: ٢٥.

(٤) حركة المجتمع في التاريخ: ٢٦٢.

عيسى (عليه السلام)

جاء لينقذ مجتمعه من الضلال والانحراف فلقد كان المجتمع يسير بحركة تراجعية إلى الخلف ويسقط في أحضان الجهل والتخلف والانحطاط الحضاري والفكري حتى وصل بهم الأمر إلى أن يعبد بعضهم بعضا وتملأ أفكارهم بعقائد فاسدة ما أنزل الله بها من سلطان، وفي خضم هذه التفاعلات أرسل الله عيسى (عليه السلام) إلى الناس

لينقذهم من الضلال ويبشر برسالته العالمية الجديدة، ويحمل كتابه إلى البشرية مطورا للتوراة، ومضيقا لها في بعض البنود التي تتلائم مع المرحلة بناءا على حكمة النبوة العامة (١) وبالإضافة إلى ذلك بشر بمحمد (صلى الله عليه وآله) من بعد رسولا إلى

البشرية جمعاء.

* (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل أني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) * (٢).

وعلى عادتهم هؤلاء فلم يؤمنوا بكل ما هو سماوي، وضلوا في حركتهم التراجعية إلى الوراء دائما وأبدا، ورموه بالانحراف والسحر وعجيب أمر هذه الأمم المنحرفة وخصوصا بني إسرائيل فإنهم أصروا على الباطل وجحدوا الحق رغم كل ما رأوه من ذل وعذاب.

فقال لهم * (أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) * (٣).

إنها معجزات خارقة يصدق بها من كان له أدنى شعور أو تفكير، ولكنهم أصروا على تكذيبه وعدم التصديق به ورموه بالسحر على عادتهم المألوفة وبالتالي التآمر على قتله.

عيسى يدافع عن نفسه

---

(١) حركة المجتمع في التاريخ: ٢٧٥ بتصرف

(٢) الصف: ٦.

(٣) الأعراف: ٤٨ - ٤٩.

عيسى (عليه السلام) دافع عن نفسه أمام ربه عندما سأله ربه:
* (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد) * (١).
فهذا الدفاع أمام الله تعالى الذي يعلم كل شئ ولكن أراد تعالى أن يظهر نزاهة عيسى (عليه السلام) وطهارته ويثبت الحق أمام الناس. وما كان جواب عيسى إلا بمنتهى
العبودية والخضوع لله تعالى فإنه جواب " يشتمل من العبودية على عصارتها ويتضمن من بارع الأدب على مجامعه يفصح عما كان يراه عيسى المسيح (عليه السلام) من
موقفه نفسه تلقاء ربوبية ربه وتجاه الناس وأعمالهم فذكر أنه كان يرى نفسه بالنسبة إلى ربه عبدا لا شأن له إلا الامتثال لا يرد إلا عن أمر ولا يصدر إلا عن أمر ولم يؤمر إلا بالدعوة إلى عبادة الله وحده ولم يقل لهم إلا ما أمر به أن اعبدوا الله ربي وربكم ولم يكن له من الناس إلا تحمل الشهادة على أعمالهم فحسب وأما ما يفعله الله فيهم وبهم يوم يرجعون إليه فلا شأن له في ذلك غفر أو عذب " (٢).
ويكفينا ذلك عن الكلام لما فيه من شمولية التفسير لهذا النص الرباني.
* * *

أسباب الانحراف في مجتمع عيسى
* (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون اتخذوا أحبارهم

---

(١) المائدة: ١١٦ - ١١٧.
(٢) الميزان: ج ٣ ص ٣٢٥.

ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) * (١).
فبعد أن دافع عيسى عن نفسه أمام الله تعالى من شبهة عبودية المجتمع إليه، حدد القرآن سبب الانحراف من خلال هذا النص الذي ألقى المسؤولية على عاتق الرهبان والأحبار الذين سيطروا على أفكار الناس ومقدساتهم فأضلوهم ودسوا لهم الأفكار المسمومة الموروثة من الجهالات السابقة للمجتمعات التي سبقتهم.
ومن ذلك يتبين أن على الإنسان أن يكون على بينة في عمله وطاعته وتقليده.
عيسى يصدح برسالته
* (ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم) * (٢).
جاء عيسى (عليه السلام) ليهديهم إلى صراط مستقيم بعدما حمل معه المعجزات الكافية التي
يصدق بها العقل وتخضع لها العواطف جاء إليهم ليبين لهم أسباب انحرافاتهم عن جادة الصواب فصدح بالدعوة وأطلق كلمة الأنبياء جميعا.
* (فاتقوا الله وأطيعون) * (٣).
إن لهذه الكلمة مشوار طويل مع الأنبياء فجميعهم جاءوا لأجل التوحيد والعبودية لله ودعوة الناس إلى الالتفاف حول القيادة الإلهية لتبدأ الحضارة من جديد وتغلق الأوراق القديمة، ولا يتحقق هذا إلا باستجابة القوم، ولكن للأسف بدل أن يستجيبوا لعيسى راحوا يخططون لقتله والخلاص من دعوته.
* (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون. ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) * (٤).
فآمن له ثلة قليلة لا يأمن معهم على الرسالة والرسول فحرموا من نعمة الرسول

---

(١) التوبة: ٣٠ - ٣١.
(٢) الزخرف: ٦٣ - ٦٥.
(٣) الزخرف: ٦٣.
(٤) آل عمران: ٥٢ - ٥٣.

بينهم * (إذ قال يا عيسى أني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين) * (١).

وأخيرا رفع عيسى (عليه السلام) إلى الله تعالى لتحرم تلك الأمة التي لا تستحق أن يكون

الرسول بينهم، لأنهم لم يكتفوا بمواجهته بل راحوا يخططون لقتله وإخفاء شخصه وإضمار دعوته.

المجتمع الجاهلي

فلا بد أولا من دراسة القوانين السائدة في المجتمع الجاهلي ليتبين لنا عظمة وقوة شخصية رسول الله (صلى الله عليه وآله) المغير لتلك القوانين والأنظمة التي حكمت المجتمع جيلا

بعد جيل، وإذا أردنا أن نقلب المجتمع الجاهلي بحثا عن قوانينه وقواعده وتقاليده نجدها لا تخرج عن هذه الأربعة:

الأولى: الفوضى

روى أهل السير والتاريخ (٢) أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف عبد الدار، ومخزوما، وجمحا، وسهما وعدي بن كعب فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل وانتهروه فلما رأى الزبيدي الشر، أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة فنادى بأعلى صوته.

---

(١) الأعراف: ٥٥ - ٥٧.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير: ٢ / ٢٤١ - ٢٤٢.

يا آل فهر لمظلوم بضاعته * ببطن مكة نائي الدار والنحر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته * يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته * ولا حرام لثوب الفاجر الغدر
فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال ما لهذا مترك، فاجتمعت هاشم وزهرة وتميم بني مرة في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاما وتحالفوا في ذي القعدة الحرام، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه أبدا، فسمت قريش ذلك الحلف بحلف الفضول وقالوا لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر " ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي ودفعوها إليه. هذه الحادثة تكشف عن مدى الفوضى التي كان يعيشها مجتمع الجاهلية قبل رسالة الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) وتكشف عن غياب القانون وحكومة الغاب

.

الثانية: - الشرك بالله

* (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا) * (١)

فكان الشرك هو السمة الثانية التي تحكم المجتمع بعد الفوضى، فتعدد الآلهة كان من سمات المجتمع الجاهلي ذلك المجتمع الذي عكف على عبادة الأصنام والحجارة التي جلبوها من مكان بعيد حيث (٢) " ذكروا أن أول من وضع الأصنام على الكعبة ودعى الناس إليها عمرو بن لحى وكان في زمان سابور ذي الأكتاف ساد قومه بمكة واستولى على سدانة البيت ثم سافر إلى مدينة البلقاء بأرض الشام فرأى قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والأشخاص البشرية نستنصر بها فننصر، ونستمطر بها فنمطر فطلب منهم صنما من أصنامهم فدفعوا إليه هبل فرجع إلى مكة ووضعه على الكعبة ودعا الناس إلى عبادتها وكان معه أساف ونائلة على شكل زوجين فدعا الناس إليهما والتقرب إلى الله بهما " وهناك رأي آخر في المسألة حول دخول الأصنام في الكعبة (٣)

---

(١) الأنعام: ١٥١.
(٢) الملل والنحل عن الميزان: ٣ / ٣٥٢.
(٣) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ٢ / ٣٧.

وكيف كان الرأي فهم في بالنتيجة خوت عقولهم وخضعت أجسادهم لأصنام لا تنفع ولا تضر فانتشرت الجهالات وسادت الفتن وشاع الانحراف ولهذا وصف الإمام على تلك الحقبة الزمنية بقوله " بعثه والناس ضلال في حيرة وحاطبون في فتنة، حيارى في زلزال من الأمر وبلاء من الجهل.

الثالثة: - قتل الأولاد

الفترات السابقة كانت مختلفة في طبيعة عيشها من حين إلى آخر فالاعتماد الكلي كان على الأمطار تقريبا وعلى التجارة المتبادلة بين المجتمعات عبر الطرق الوعرة، فهذا الاعتماد يسبب للناس حالة من عدم الاستقرار الاقتصادي فتارة يرفلون بالنعمة وأخرى يصابون بالقحط وإذا أصاب أحدهم القحط والإفلاس يلجأ إلى وسائل غريبة تفقدها المجتمعات اليوم بحمد الله ألا وهي قتل الأولاد وتخفيف المسؤولية على عاتق الأب خوفا من الإملاق بتعبير القرآن الكريم.

* (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) * (١) فلا حل لديهم إلا هذه الوسيلة الخالية عن المنطق والخاضعة لحياة الوحشية وقوانينها.

الرابعة: - وأد البنات

كانت هذه الطريقة هي الأخرى سائدة في المجتمعات القديمة فكانوا من الوحشية بمستوى لا يصل إليه الحيوان الذي لا عقل له مطلقا، فكان أحدهم إذا بشر بمولود أنثوي يسود وجهه وتتغير معالم صورته الحقيقية وكأن هناك كارثة قد حصلت وبالنتيجة يلجأ إلى قتله من دون سبب أو جريمة.

* (وإذا الموؤودة سئلت بأي ذنب قتلت) * (٢)

* (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ضل وجهه مسودا وهو كظيم) * (٣)

الخامسة: - الفاحشة

---

(١) الأنعام: ١٥١.

(٢)

(٣) النحل: ٥٨.

المجتمع حينما يسيطر عليه الجهل، وتختفي منه العقول، وعندما يخفت فيه الضمير ، تبدأ فيه الفاحشة بالنمو، وتشيع الجهالات بين أبنائه، فيكون ملئ بالخرافات والأساطير التي تستحكم في العقول بحيث تصيرها ظرفا لكل شئ حقا كان أو باطلا ومجتمع كهذا يجد الفساد فيه طريقا معبدا لنخره وقتله فالجاهلية لا تبتعد كثير عن مثل هذه الأجواء.

وأخيرا يبين لنا النص الآتي طبيعة المجتمع في تلك الحقبة الزمنية حيث يقول " أن السلب والنهب والإغارة والتعصب القبلي وغير ذلك قد كان من ميزات الإنسان العربي حتى أنه إذا لم تجد القبيلة من تغير عليه من أعدائها أغارت على أصدقائها وحتى على أبناء عمها يقول القطامي:

وكن إذا أغرن على قبيل * وأعوزهن نهب حيث كانا

أغرن من الضباب على حلال * وضبة أنه من حان حانا

وأحيانا على بكر أخينا * إذا ما لم نجد إلا أخانا

إلى أن يقول وكذلك ظروف الغزو والإغارة التي تعني سبي النساء والأطفال وقد دفعهم إلى قتل الأولاد ولا سيما البنات... " (١).

وبالإضافة إلى كل هذه العادات نضيف كلام جعفر إلى ملك الحبشة حيث قال له: " كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونقطع الأرحام ونسبي الجوار ويأكل القوي منا الضعيف " (٢).

هذه هي حالة المجتمع قبل رسالة رسول الله (صلى الله عليه وآله) بما هو عليه من الفساد والظلم

والانحراف الجلي.

* * *

---

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ٢ / ١٧ - ١٨.

(٢) البداية والنهاية ٣ / ٧٣ - ٧٤.

محمد (صلى الله عليه وآله)
من أين نبدأ وفي أين ننتهي وهذا سيد البشر وخير الخلق أجمعين وخاتم النبيين محمد (صلى الله عليه وآله) ذلك الرسول الذي اتسمت حياته بالمعاناة والعذاب فهو رجل الصعاب
" ورجل الفضل والعقل والكمال ومثال الحكمة والوقار والجلال عالم، حكيم، نقي، شجاع، حازم إلى غير ذلك من الصفات الإنسانية الفاضلة والكمالات الرفيعة " (١) فاحتارت به العقول وانبهرت، حتى وقف أعداءه أمام سيرته الكريمة مطأطئين الرؤس معترفين بفضله على الإنسانية جمعاء.
وإذا تصفحنا تاريخ حياته الشريفة وجدناه حافلا بالمعاناة والعذاب والآلام متقلدا بالقيم والتقاليد السامية التي يفقدها مجتمع اليوم فضلا عن مجتمعه، ففتح عينيه (صلى الله عليه وآله)
يتيما فاقدا للأب وحنانه فلجأ إلى الله تعالى، إلى ربه إلى من يكفله ويعينه في حياته الصعبة، إلى مرشده في الشدائد والصعاب، فنصر الله في نفسه وبتعامله، فنصره الله، وعبد الله، فأمره على مجتمعه، فكان مثالا للنور الإلهي في ظلمات الجهل الحاكمة على تلك المجتمعات، وكان العلم الذي ينكشف به الظلام وكان صفات الله التي تتحرك على الأرض، فكان إلهي في كل حركة وسكنة حتى قيل فيه " كان رسول الله في ريعانه عالي الهمة عفيفا وفي تجارته أمينا قانعا وفي شركته أخا صادقا وفي حربه خصما معقولا شريفا وفي معاهداته نافرا من الغدر وافيا بالعهد وفي زواجه مثالا للنفس السامية والخلق الكامل وفي حكمه أمينا على الخلق ناصرا له هداما للباطل مقوضا لبنيانه " (٢).
فسلام عليه يوم ولد بين ظهراني هذه الأمة، وسلام عليه يوم عذب بين أهلها، وسلام عليه يوم هاجر إلى المدينة، وسلام عليه يوم نقل عبقات الإيمان من مكة إلى العالم، وسلام عليه يوم شارك في الحروب والغزوات، وسلام عليه يوم كان في حجر علي بن أبي طالب يلفظ أنفاسه الأخيرة، وسلام عليه يوم يسقي الواردون إليه من حوض الكوثر، وسلام عليه يوم يقف شاهدا على أعمال أمته وما خلفوه، وإلى ذلك فليصبر الصابرون.
الدعوة السرية

---

(١) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ١ / ١٧.
(٢) أخلاق الرسول (صلى الله عليه وآله) الأستاذ محمد محمد يوسف.

هدف السرية كان هو الحفاظ على الرسالة من القتل في المهد، لما في المجتمع من أساليب إجرامية تفعل ما تشاء بدون حد، فاستمرت الدعوة السرية ثلاث أو خمس سنوات حتى أصلت جذورها وأحكمت قواعدها بحيث تكون قادرة على أن تقف أمام جبروت وعزة قريش، فكانت الرسالة في بداياتها ترتضع من ثدي السماء وتترعرع شيئا فشيئا على أكتاف أول المسلمين بها وفي مقدمتهم (١) علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فتهيئة القاعدة من الأركان الأساسية للدعوة وأهم مرحلة من مراحل
البناء هي مرحلة الإعداد النفسي والتربية العقائدية ورفع المعنويات لتلك الثلة التي آمنت بالرسول (صلى الله عليه وآله) وصدقت به في أول دعوته فلا بد أن يبدأ التغيير من القاعدة
الأساسية في البناء بحيث يكون تغييرا شاملا لكل القيم والعادات والتقاليد التي كانت تحكمهم في مرحلة الجاهلية.
وما أن اكتمل عدد المسلمين ثلاثين شخصا كما قيل وأصبحوا يستنون بسنن خاصة تختلف عن سنن المجتمع السائدة وشاع الخبر وتسربت الأقاويل وكثرت الكلمات فدعا رسول الله (صلى الله عليه وآله) أصحابه إلى دار الأرقم أو إلى شعب أبي طالب (٢) لتكون تلك
البقعة التي اجتمعوا فيها مركز للإشعاع العالمي فسمي المكان الذي انطلق الإسلام منه بدار الإسلام (٣).
القرار السياسي
لم تدخر قريش أي وسيلة من وسائل المواجهة مع الرسول (صلى الله عليه وآله) وأنصاره وبدأت
المعاناة تشتد على المسلمين يوما بعد يوم فاختار رسول الله (صلى الله عليه وآله) الحل السياسي
الذي يذل قريش لعدم حفظ أبنائها، ويعز الإسلام بنشره في كل صقاع المعمورة فاختار رسول الله (صلى الله عليه وآله) الهجرة للرعيل الأول من المسلمين وحدد لهم مكانهم وهو
الحبشة والسر في هذا الاختيار بينه رسول الله (صلى الله عليه وآله) في قوله " أن فيها ملكا لا يظلم
عنده أحد وهي أرض صدق وأنه يحسن الجوار " (٤).
فهاجر المسلمون إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة وأرسل رسول الله (صلى الله عليه وآله)

---

(١) الغدير: ٣: ٩: ١٠.
(٢) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ٢ / ٣٤٦.
(٣) التراتيب الإدارية ١ / ٤٠٨ عن الصحيح من سيرة النبي الأعظم ٢ / ٣٤٥.
(٤) الصحيح من سيرة النبي الأعظم ٢ / ٣٤٦.

معهم رسالة إلى ملك الحبشة قال فيها:
" وقد بعثت إليك ابن عمي جعفر ابن أبي طالب معه نفر من المسلمين فإذا جاؤوك فأقرهم..... الخ " (١).
وما أن سمعت قريش برحيل وفد من المسلمين إلى الحبشة استشاطوا غضبا، وفكروا بمختلف الطرق لإرجاعهم، والحكم عليهم داخل المجتمع، بتلك القوانين والعادات السلفية السائدة، وأخيرا أرسلوا إلى الحبشة من يأتي بالمسلمين إلى مكة وفشلوا في تحقيق الغرض من سفرتهم وعادوا خائبين يجرون أذيال الخيبة والخسران ونحن هنا لا نريد أن نستغرق في المواجهات التي دارت في الحبشة ومن أراد ذلك فليراجع (٢).
وسائل قريش في المواجهة
أولا: الحصار الاقتصادي والاجتماعي
كتب كفار قريش صحيفة تعاقدوا فيها على حصار بني هاشم حصارا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا إذا لم يسلموا محمد (صلى الله عليه وآله) فهذه هي وسائل الجبناء في العقوبات
الجماعية التي لا مبرر لها سوى عدم المبرر فهاهم كفار اليوم يفرضون على من يشاؤن حصارا ويقتلون الشعوب جوعا، فهذه الوسيلة قديمة قدم الضلال والانحراف، فأراد كفار قريش أن يعاقبوا كل بني هاشم فأمر أبو طالب بأن يدخلوا إلى الشعب واستمر الحصار بما فيه من تبعات على الأطفال والنساء والشيوخ من بني هاشم ثلاثة سنين وكان أبو طالب الذي يكفره اليوم من لا إسلام له يتابع رسول الله (صلى الله عليه وآله) في كل حركة وسكنة خوفا عليه من غدر الجبناء.
ثانيا: التعذيب

---

(١) البداية والنهاية ٣ / ٨٣.
(٢) السيرة النبوية ٢ / ٢١، سيرة ابن هشام ١ / ٣٦٠، حلية الأولياء ١ / ١١٤.

مارسوا كل وسائل التعذيب لقتل دعوة محمد (صلى الله عليه وآله) وخير شاهد على ذلك ياسر
وزوجته وعمار الذين عذبوا في مكة أشد تعذيب وبمختلف الوسائل وتحت وطأة الهجيرة ووعورة البيداء فلاقى أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) من الكفرة ما لاقوه من التنكيل
والهوان والقتل والتشريد وهذا شأن كل الدعوات الحقة عندما تقابل الجهلة والسفلة من الناس.
ثالثا: محاولة قتل الرسول (صلى الله عليه وآله)
* (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) * (١)
قتل الرسول يمثل قتلا للرسالة وإطفاء لشعلتها التي تتوهج يوما بعد يوم، فاجمعوا أمرهم وأعدوا عدتهم لقتل رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وغلق هذا الباب الذي أرقهم كثيرا
فجمعوا القبائل وتشاوروا في أمر القتل فاستقر رأيهم على أن يضيع دم رسول الله (صلى الله عليه وآله) بين العرب فعلم رسول الله بالأمر وندب أمير المؤمنين نفس الرسول لهذه
المهمة حتى يخرج من بينهم سالما فكان جواب الأمير " أو تسلم يا رسول الله " من دون تلكأ وتراجع فهدفه الوحيد سلامة الرسول، وبات في تلك الليلة على فراشه
ولم يعلم به أحد، حتى أبو بكر عندما جاء إلى علي (عليه السلام) وهو نائم في فراش الرسول ولا يعلم أنه علي (٢) فأخبره بالخبر وتبع رسول الله (صلى الله عليه وآله)
وقريش كانت
غافلة عن ذلك أيضا (٣)، فبقي علي (عليه السلام) نائما منتظرا إياهم حتى هجموا عليه فانتفض عليهم وفروا منه كما تفر المعزى من الذئب عندها علموا أن رسول الله (صلى الله عليه وآله)
نجى من كيدهم ومكرهم فانكسر جبروتهم وتمرغ طغيانهم وانتصر رسول الله (صلى الله عليه وآله)
بالخروج من قبضتهم ليبدأ مرحلة جديدة من مراحل الدعوة إلى الله تعالى.
قرار الهجرة
توفي المحامي الأول لرسول الله (صلى الله عليه وآله) الذي ظل يدافع طول حياته عن الرسالة

---

(١) الصف: ٩.
(٢) تفسير البرهان، ١ / ٢٠٧.
(٣) تاريخ الطبري، ٢ / ١٨.

ورسولها فانفردت قريش برسول الله (صلى الله عليه وآله) وأصحابه ولم يبقى أي عقبة أمامهم سوى
اقتناص الفرصة وقتل الرسول (صلى الله عليه وآله) والقضاء على رسالته فقرر (صلى الله عليه وآله) أن يتوجه إلى
المدينة ويهم بالخروج من مكة ليسقي الرسالة ماء الحياة ويفتح عليها أفق العالم حتى تتنفس ريح الحرية وتخرج من الخناق الذي فرضته قريش على المسلمين طيلة فترة بقاءهم في مكة فكان قرار الهجرة قرارا سياسيا آخر ليعطي للرسالة قوة وإمكانية على البقاء والاستمرار بحيث تكون قادرة على المواجهة المستقبلية مع المشركين فكانت أسباب الهجرة:

١ - أن مكة لم تكن أرض صالحة للتبليغ بسبب تعنت المشركين ومحاربتهم للرسول (صلى الله عليه وآله) بشتى الطرق.

٢ - مشاركة الرسول للمؤمنين بالرسالة في الابتلاءات.

٣ - إخراج الرسالة من أفق ضيق إلى أفق أوسع.

نشر الرسالة

كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يتحين الفرص في التجمعات والاجتماعات التي تحدث بمناسبة
أو بغير مناسبة لنشر دعوته بين الناس وعلى رؤس الأشهاد والسر في ذلك تأسيس قاعدة ترتكز علها الرسالة فكان (صلى الله عليه وآله) يعرض دعوته على القبائل التي يمر بها في كل
رحلاته وأسفاره حتى صارت الرسالة أول منطقة إذا تكلم وفي ضميره إذا صمت وهذا يكشف عن مدى العمق الرسالي الذي يعيشه رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويعطينا بذلك
درسا لتحديد المواقف المستقبلية من الدعوات الحقة الناشدة إلى التغيير وكيفية الاتحاد معها والإيمان بها بحيث تكون هي الحياة التي يعيشها الإنسان فكان يستعرض القبائل قبيلة قبيلة يدعوهم إلى الله ولكن للأسف لا يرى أحد يستجيب له وخصوصا قومه فكانوا أشد القبائل عليه (١).

زوجات الرسول (صلى الله عليه وآله)

---

(١) تهذيب الكمال: ٧ / ١٧٦ / ١٤٥٤.

الزواج بأكثر من واحدة كان سمة من سمات المجتمع القديم، ونقلت الكتب التاريخية لنا أسماء الكثير من الشخصيات الذين تزوجوا بثلاثة أو أربع نساء أو أكثر من ذلك.

أما بالنسبة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم يكن زواجه اعتباطيا فهو صاحب الرسالة والأمر

العام الذي كلف بنشره في أرجاء المعمورة، ورجل مثل هذا الرسول وبهذه المهام الجسام لا يكفيه الوقت اليومي ٢٤ ساعة لإتمام أعماله السياسية والاجتماعية بين الناس فضلا عن أن يتزوج النساء، فما كانت زيجاته إلا لحكمة أرادها رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن تكون سندا للرسالة وتآلفا بين القبائل والتقرب منهم لما فيه من حكمة لنشر

التبليغ وإرساء أسس وقواعد الدعوة في المجتمع.

الرسول يبعث المبلغين

أخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله) بنشر دعوته بين الناس لما فيها من شمولية التعاليم وقابلية

القيمومة على المجتمع وقيادته والسير به إلى الهدف المنشود نحو الله تعالى فأخذ يبعث المبلغين إلى المدن والقبائل التي تحيط بمكة لينشر أفكار رسالته مما يؤدي إلى زيادة الكم المؤمن بالرسالة لتوسع القاعدة وتنتشر، فأرسل مصعب بن عمير إلى المدينة ليعلم الناس القرآن وألحقه بابن أم مكتوب، فأخذ سفراء الإسلام بالتبليغ وإرساء أسس وقواعد الدين الجديد داخل المجتمع، وإقامة الطقوس الدينية الإلهية مثل الصلاة وغيرها وربط الناس بالله تعالى لكي ينقذوهم من ضلالات الجاهلية الأولى.

وصية الرسول لكتائبه وسراياه

" سيروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا صبيا ولا امرأة ولا تقطعوا شجرا إلا أن تضطروا إليها وأيما رجل من أدنى المسلمين أو أفضلهم نظر إلى رجل من المشركين فهو جار حتى يسمع كلام الله فإن تبعكم فأخوكم في الدين وإن أبى فابلغوه مأمنه واستعينوا

بالله.... الخ) (١).
فهذه هي وصايا قائد الإسلام قبل آلاف السنين فهو يطلب النصر ولكن لا بالجور، ويقاتل ولكن لا بالغدر، ويبلغ ولكن بأمانة وصدق وإخلاص فهو في حربه وسلمه شريفا عفيفا مستعينا بالله تعالى لا يفرق في وصاياه بين الجندي والقائد، فهدفه (صلى الله عليه وآله) ليس بإقامة الدولة فقط بل بإرساء أسس الخير والمحبة والتعاون، وتعميق
الإيمان بالنفوس لكي تبقى الرسالة ما بقت البشرية لا بذهاب الدولة المطلوب تشييدها.
الرسول بين مكة والمدينة
سار الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى المدينة مارا بالقبائل الذي سكنت الطريق المؤدي إلى الهدف
المطلوب لينقل النور الإلهي وهدية السماء إلى العالم بشكل عام وإلى المدينة بشكل خاص، حتى تكون تلك البقعة محط أنظار العالمين في ذلك الوقت، حيث تنطلق منها السرايا والكتائب والسفراء لتبشر العالم بالنبوة المحمدية وترغم الكافرين على الانضواء تحت راية الرسول (صلى الله عليه وآله) والإدانة له سياسيا واقتصاديا واجتماعيا لما في
رسالته من قابلية الديمومة والتشريعات العامة القابلة للبقاء لأنها تشمل كل جوانب الحياة.
فالدعوة بدأت تتسع عندما خرج المسلمون من مكة ومن الحصار المفروض عليهم فيها من قبل مشركيها.
غزوة بدر الكبرى
عندما وصل رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى المدينة بدأ يفكر في كيفية إقامة الدولة الإسلامية،
وتجهيز الجيش، وإعداد العدة للمواجهة، وتحقيق هدف الرسالة الكبير، وما أن سمع بأن عير إلى قريش يتزعمها أبو سفيان قادمة من الشام وفيها أموال كثيرة لقريش استعد للمواجهة لكي يشعرهم بأن الرسالة لن تقف عند هذا الحد بل ستطال

---

(١) الكافي ١ / ٣٣٤، البحار ١٩ / ١٧٧، التهذيب للطوسي: ٦ / ١٣٨.

كل ما يملكون من أموال وستهدد مصالحهم في الخارج، فأرسل أبو سفيان إلى قريش يستنفرهم للقتال، والدفاع عن أموالهم وصارت مكة في حيرة من أمرها بعدما رأت عاتكة بنت عبد المطلب رؤيتها في المنام وبدخول البلاء إلى كل دار من ديار قريش (١) فبعد كل ذلك تهيأ المشركون للقتال وأعدوا العدة وجاءوا بغرورهم المعروف وكل همهم أن يقتلوا الرسالة وينهوا الأمر والشاهد على غرورهم ذلك قول أبو جهل حيث قال قاصدا المسلمين " ما هم إلا أكلة رأس لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذا باليد " (٢) فهذا الغرور الذي جعلهم يسجدون إلى لصنم ولا يسجدون لإله محمد (صلى الله عليه وآله) سيوصلهم إلى الظلام وإلى حافة الهلاك وبالفعل جاءوا جميعا،

وقصدوا القتال، بعدما خرجوا لإنقاذ القافلة وعلموا بسلامتها، فقرروا أن يواجهوا الرسول (صلى الله عليه وآله) فواجههم الرسول (صلى الله عليه وآله) بثلاثمائة وثلاثة عشر لا يملكون عدة المواجهة

الكاملة ولكنهم مسلحين بسلاح الإيمان والبطولة والتضحية كيف لا وهذا قول المقداد " يا رسول الله أنها قريش وخيلائها وقد أمنا بك وصدقنا وشهدنا أن ما جئت به حق والله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس لخضناه معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكنا نقول امض لأمر ربك فإنا معك مقاتلون " (٣) فكان هذا موقف للأصحاب افتخر به رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبالإضافة إلى ذلك قام له سعد بن معاذ ليبين للرسول

موقف الأنصار فقال " بأبي أنت وأمي يا رسول الله إنا قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله فمرنا بما شئت وخذ من أموالنا ما شئت واترك منها ما شئت والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك ولعل الله عز وجل أن يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله " (٤).

فتهللت أسارير رسول الله (صلى الله عليه وآله) فرحا لهذه المواقف النبيلة والشريفة واستعد

للمواجهة وخطب بالمسلمين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

" أما بعد فأني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق ويحب الصدق ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده، به يذكرون وبه يتفاضلون، وأنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق، لا يقبل الله فيه

---

(١) الميزان: ح ٩ / ٢٤.
(٢) الميزان: ح ٩ / ٢٤.
(٣) الميزان: ج ٩ / ٢٤.

(٤) الميزان: ج ٩ / ٢٥.

من أحد إلا ما ابتغى به وجهه، وأن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم، وينجي به من الغم، تدركون به النجاة في الآخرة فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شئ من أمركم يمقتكم عليه فإنه تعالى يقول:
* (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم) * انظروا في الذي أمركم به من كتابه.... الخ " (١)
وبعد أن أكمل خطبته الشريفة استعد الطرفان للمواجهة ودارت رحى المعارك وسجلت المواقف للأبطال الذين آمنوا بالله حق إيمانه وتصدر قائمة الفرسان علي بن أبي طالب باعتراف الفريقين حيث شاطر القوم في مواجهتهم بالمناصفة واستجاب الله دعاء رسوله (صلى الله عليه وآله) عندما قال " اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك
هذه العصابة لا تعبد في الأرض " فجاءت الإمدادات الإلهية * (إذ يوحي ربك للملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا فوق كل بنان ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ذلكم فذوقوا وإن للكافرين عذاب النار) * (٢) فكانت المواجهة مصيرية تحدد للرسالة أهدافها وتؤصل جذورها وتحكم قواعدها فيما إذا تحقق النصر للمسلمين، فقتل من المشركين من قتل وفي مقدمتهم أبو جهل ابن هشام فوقف الرسول (صلى الله عليه وآله) عليه فقال: " إن هذا أعتى على الله من
فرعون أن فرعون لما أيقن بالهلاك وحد الله وأن هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللات والعزى " (٣) فانتصر المسلمون بقيادة رسول الله وتحقق وعد الله لرسوله وانهزم مشركي مكة وكفارها بعد ذلك الذل والتنكيل وبدأت آيات الله تشعر المسلمين بضرورة شكر الله وأن لا يغتروا بالنصر حيث قالت:
* (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) *.
معركة أحد
المعركة الأخرى التي اضطرمت نيرانها بين المسلمين والمشركين هي معركة أحد، فلما انهزم جيش المشركين في بدر ظلت غائلة الحقد في صدورهم على رسول الله

---

(١) الميزان: ج ٩ / ٢٩.
(٢) الأنفال: ١٢ - ١٤.
(٣) الميزان: ٩ / ٣٠.

(صلى الله عليه وآله) حتى قال أبو سفيان عليه اللعنة " يا معشر قريش لا تدعوا نساءكم تبكين على
قتلاكم فإن الدمعة إذا خرجت أذهبت الحزن والعداوة لمحمد " (١).
فهذه هي طبيعة الحقد السفياني على رسول الله وأصحابه، وحمله من بعده ولده معاوية هذا الحقد الذي بقي في صدر أبو سفيان يغلي ويفور ولا يبرد حتى يقضي على رسول الله وأنصاره، فأخذ يعد العدة للمواجهة الجديدة ويحشد الحشود ويقوي عزائم المشركين بإثارة النعرة القبلية عندهم للثار وطلبه فتجهزوا للقتال.
فأرسل العباس بن عبد المطلب برسالة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) يخبره بتجهيز جيش
الكفار (٢) وما أن وصل الكتاب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى كتمه ولم يبينه خوفا من
تسري الخبر واستغلاله من قبل المنافقين الذين لم يسرهم نصر رسول الله (صلى الله عليه وآله) في
غزوة بدر لأنهم يحملون الحقد الدفين ويتحينون الفرص لتحقيق مآربهم الشريرة وهذا الكتمان ساعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) على تجهيز الجيش وإعداد العدة من دون إثارة
للإشاعات داخل المجتمع.
فجهز الجيش، وأمر أصحابه بعد أن أعلمهم بالأمر أمرهم بأن يتوجهوا إلى قتال مشركي مكة ورسم لهم الخطة التي لا يمكن أن تفشل أبدا إذا طبقت لما فيها من أنفاس إلهية، وأعطى الراية إلى المدافع الأول عن الإسلام علي بن أبي طالب (عليه السلام) (٣)
فحثهم بعد ذلك رسول الله على الجهاد ورغبهم فيه.
وأخذت الرجال مواقعها من القتال وصعد الرماة الذين يحمون ظهور المسلمين إلى الجبل بعد أن أوصاهم حامل الراية علي بن أبي طالب فقال لهم: " احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا " (٤) فبعد كل هذه التوصيات التي سبقت المواجهة تناسى القوم كل ذلك، وتركوا مواقعهم، وانحدروا صوب المعركة، فالتف عليهم المشركون وانقلبت الموازنة فبعد أن أصبح النصر قاب قوسين أو أدنى من المسلمين، انقلبت الظروف وسيطر المشركون على المعركة وأخذ المسلمون يتراجعون، حتى تركوا رسول الله وحده مع ثلة من المؤمنين يتقدمهم أميرهم علي بن أبي طالب فصار يدافع عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويدفع
المشركين عنه الكتيبة بعد الكتيبة، كيف لا وهو من رسول الله وجبرائيل منهما (٥)

---

(١) الميزان: ٤ / ١١.
(٢) تاريخ الخميس: ١ / ٤٣٠.
(٣) الثقات لابن حبان: ١ / ٢٢٤.
(٤) السيرة الحلبية: ٢ / ٢٢٢.
(٥) فرائد السمطين: ب ٥٠، ج ١ ص ٢٥٧، البداية والنهاية: ٦ / ٥.

حتى ورد في الأخبار أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) نظر إلى جبرائيل بين السماء والأرض على
كرسي من ذهب وهو يقول لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي (١).
وبالنتيجة قتل خيار المسلمين وعلى رأسهم حمزة الذي يعتبر أسد الله وأسد رسوله
حتى أنشد أبو زيد عمر بن شبه يرثي حمزة ويقول:
بكت عيني وحق لها بكاها * وما يغني البكاء ولا العويل
على أسد الإله غداة قالوا * لحمزة ذاكم الرجل القتيل
أصيب المسلمون به جميعا * وهناك قد أصيب الرسول
إلى آخر قصيدته التي يرثي بها حمزة سيد الشهداء (٢) الذي راح ضحية المخالفة الصريحة للقيادة الإلهية ومن ذلك نستل درسا آخر وهو أن الطاعة من العوامل الأساسية لتحقيق النصر، وعدمها تقلب الموازين حتى لو كانت الكفة راجحة.

معركة الخندق

معركة أخرى من معارك رسول الله (صلى الله عليه وآله) خطط لها بمشورة أصحابه، ونفذها
المسلمون، واستطاعوا في هذه المعركة بتسديد إلهي، وريح عاصف، أن يحققوا النصر على عدوهم وعدو الإنسانية مشركي قريش ومجرميها، ففي هذه المعركة استطاع المسلمون أن يحققوا النصر، ويولي المشركون منهزمون إلى غير رجعة، بعدما حاصروا المسلمين بضع عشر ليلة (٣) حتى قيل أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال " اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إنك إن تشاء لا تعبد " وبهذه الأنفاس الإلهية أنزلت
جنود الله إلى رسوله لتنصره على عدوه فجائت الريح التي أذهبت أبصارهم، وقال الله في ذلك:
* (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما

---

(١) الميزان: ٤ / ١٤.
(٢) الإستيعاب في هامش الإصابة: ج ١ ص ٢٧٥.
(٣) فرائد السمطين: ب ٥٠، ج ١ ص ٢٥٧، البداية والنهاية: ٦ / ٥.

وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) * (١).
فهذا النص الشريف يكشف لنا أمرين:
الأول: – قوة الأعداء وتجهيزهم للمعركة وعدتهم لها بحيث سميت الأحزاب لأنهم اجتمعوا جميعا على قتل الوليد الجديد (الذي يبشر الإنسانية خيرا) في مهده وإطفاء نور الرسالة المحمدية الذي أصبح يقض مضاجعهم يوما بعد يوم.
الثاني: – المنافقين والذين لم يؤمنوا طرفة عين فهؤلاء أصبح أحدهم يجبن الثاني ويزلزل قواعد الجيش ويثبت الرعب بين المسلمين، ولعمري أني لأتسائل أين عدالة الصحابة من هذا النص الذي يصرح بوجود منافقين مع جيش رسول الله (صلى الله عليه وآله)
، والذين كفروا بقولهم – أن وعد الرسول غرور – وفي خضم تفاعلات المعركة وأوجها استطاع عمر بن ود العامري أن يجتاز الحاجز الذي مع المشركين والوصول إلى المسلمين وأخذ يصرخ بأعلى صوته طالبا المبارزة ولكن الأصحاب المنعوتين بالعدول جميعا في هذا اليوم ظلوا في حيرى من أمرهم سوى علي بن أبي طالب (عليه السلام) وتكررت صراخات عمر وعلي ينهض من بينهم للمواجهة والرسول
يجلسه حتى وصل الحد إلى أن يستهزء عمر بمقدرات الرسالة في نفوس أنصارها، فأين الجنة التي تتحدثون عنها؟ هل أنتم خائفون من الذهاب إليها؟ عند ذلك صدرت الأوامر النبوية لعلي بن أبي طالب وبرز إلى عمر مستهينا بالقوة التي يحملها ذلك المشرك وما أن رأى عمر على (عليه السلام) تقدم لقتاله نصحه في الرجوع وإلا الموت،
وما أحلى من طعم الموت عند علي (عليه السلام) وتقابل الطرفان وثارت غبرة وما أن انجلت
حتى جثى أمير المؤمنين على صدر عمر ليحز رأسه ويقطع الشرك من أصله ويقتلعه من جذوره فكبر المسلمون وانهزم المشركون بسيف على (عليه السلام) فهذه المواقف
رد صامت على الأقلام الخبيثة والمأجورة التي تحاول النيل من علي (عليه السلام) وشموخه
ولكن هيهات كلما شتموه ارتفع في سلم الكرامة وكلما طاردوا أنصاره خلد في التاريخ أكثر فأكثر.
النبي ويوم الغدير

---

(١) الأحزاب: ٩ – ١٢.

* (يا أيها النبي بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين) * (١).
أهم حدث سياسي في تاريخ رسالة الرسول (صلى الله عليه وآله) هو نصب الخليفة من بعده وأهمية
نابعة من النص القرآني المذكور حيث يوجه إلى رسول الله بهذه القوة.
* (بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) *
وأيضا أهمية ذلك نابعة من خطبة رسول الله (صلى الله عليه وآله) التي ستذكر مقاطع منها بقدر
الحاجة إليها والتي ذكر فيها رسول الله (صلى الله عليه وآله) إنه يخاف من افتراق الأمة واستيلاء
المنافقين غيابه عنها، فلا بد من أن ينصب خليفة من بعده فلهذه الأسباب ولغيرها كانت واقعة الغدير التي هي من أهم الأحداث السياسية في تاريخ رسالة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولا يمكن لأحد أن يشكك في ذلك لأن حديث الغدير روي من طرق يصعب
إحصائها ونذكر منها.
١ - أحمد بن حنبل ٤٠ طريق
٢ - ابن جرير الطبري ٧٢ طريق
٣ - الجزري المغربي ٨٠ طريق
٤ - ابن عقد ١٠٥ طريق
٥ - أبو سعيد السجستاني ١٢٠ طريق
٦ - أبو بكر الجعابي ١٢٥ طريق
وغيرها (٢)
" فحديث الغدير كان محل العناية من الله عز وجل إذ أوحاه تبارك وتعالى إلى نبيه (صلى الله عليه وآله) وأنزل فيه قرآنا يرتله المسلمون إناء الليل وإطراف النهار يتلونه في خلواتهم
وجلواتهم وفي أورادهم وصلواتهم وعلى أعواد منابرهم وعوالي منائرهم " (٣).
فحديث الغدير لا ريب فيه ولا شك ومن نكر ذلك صار مصداقا للآية القرآنية * (لهم قلوب لا يفقهون بها) * (٤).
فلا كلام لنا مع من أنكر.
المهم عندنا هو طبيعة الحدث السياسي في تلك الفترة نحن بحثنا ليس الهدف منه

---

(١) المائدة: ٦٧.
(٢) المراجعات، عبد الحسين شرف الدين.

٣ - المراجعات: ص ١٨٤ - ١٨٥.
(٤) الأعراف: ١٧٩.

استقصاء الطرق والأسانيد الواردة في ذلك ولكن نذكر منها قسما للشاهد فقط أما بحثنا يهتم بطبيعة الموقف، عندما فرض علي (عليه السلام) على الأمة من الله تعالى وليا وناصرا وقائد للمسلمين من بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ونحن هنا ننقل مقاطع من خطبة
الرسول (صلى الله عليه وآله) لنبين طبيعة الموقف في ذلك الزمان حيث قال (وسألت جبرئيل أن
يستعفي لي عن تبليغ ذلك إليكم إيها الناس، لعلمي بقلة المتقين وكثرة المنافقين وإدغال الآثمين وختل المستهزئين بالإسلام الذين وصفهم الله في كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم وكثرة إذ هم لي غير مرة حتى سموني أذنا (١).
فهذا النص من الخطبة يبين لنا طبيعة الموقف، ورد الفعل من أولئك الذي قسمهم الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى منافقين – قلته متقين – إدغال الاثنين ختل المستهزئين بالإسلام –
وغير ذلك من الطبقات التي كانت في تلك الحقبة الزمنية، فيا ترى كيف يكون ردهم على هذا التبليغ الإلهي الذي قال فيه رسول الله " فضلوه فقد فضله الله واقبلوه فقد قبله الله " (٢).
ثم قال معاشر الناس " إنه إمام من الله ولن يتوب الله على أحد أنكر ولايته ولن يغفر الله له ".
فكل ذلك، وصارت الأمة بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله) إلى سقيفة بني ساعدة لتنقلب على
كل الوصايا والأحكام والتعليمات الإلهية الصادرة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وتستمر الحياة
حتى تستكمل دورتها ويستلم الوصي الأخير من أوصياء الأنبياء، يستلم الأمانة، وميراث العلم، والنبوة بإذن الله تعالى ويعود الحق إلى نصابه ويجتث الباطل من أصله إن شاء الله تعالى.
الرسول يلبي نداء ربه

---

(١) المراجعات: ص ١٨٤ – ١٨٥.
(٢) الإحتجاج: ص ١٤٥.

قبل ذلك لا بد من التحدث عن الفترة التي سبقت وفاته (صلى الله عليه وآله) تلك الفترة التي أكملت
الشريعة فيها أوامرها ونواهيها وتهيأ المسلمون إلى فترة ما بعد الرسول (صلى الله عليه وآله)، وفي
أوج مرضه خرج الرسول (صلى الله عليه وآله) متكئا على الفضل بن عباس وغلام له يقال له ثوبان
فصلى بالمسلمين وعاد إلى منزله فعلم المسلمون من حال رسول الله (صلى الله عليه وآله) ما علموا
فأمر الرسول (صلى الله عليه وآله) غلامه (١) بأن يجلس على الباب وأن لا يحجب أحدا من الأنصار
وتجلاه الغشي فجاء الأصحاب ليعودوه فعلموا بالأمر وأخذوا يبكون فسمع رسول الله (صلى الله عليه وآله) بكاءهم وخرج إليهم متكئا على علي والعباس وخطب خطبته المعروفة إلى
أن قال " معاشر الناس أنه لم يمت نبي قط إلا خلف تركه وقد خلفت فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي ألا فمن ضيعهم ضيعه الله ألا وأن الأنصار كرشي وعيبتي التي آوي إليها وأني أوصيكم بتقوى الله والإحسان إليهم فأقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم " ثم دعا أسامة بن زيد فقال له " سر على بركة الله والنصر والعافية حيث أمرتك بمن أمرتك عليه، وكان الرسول (صلى الله عليه وآله) أمره على جيش للإغارة على واد
بفلسطين يسمى مؤتة ومن أفراد الجيش أبا بكر وعمر وجماعة من المهاجرين،
فأجابه أسامة بالقول " بأبي أنت وأمي يا رسول الله أتأذن لي في المقام أياما حتى يشفيك الله تعالى فأني متى خرجت وأنت على هذه الحالة خرجت وفي قلبي منك قرحة فقال (صلى الله عليه وآله) إنفذ يا أسامة لما أمرتك فإن القعود عن الجهاد لا يجب في حال من
الأحوال ".
وبعد كل هذا جاء البلاغ إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأن الناس قد طعنوا في عمله فقال لهم
الرسول (صلى الله عليه وآله) بلغني أنكم طعنتم في عمل أسامة وفي عمل أبيه من قبل وأيم الله أنه
لخليق للإمارة وأن أباه خليقا لها وأنه وأباه من أحب الناس إلي.... فلئن قلتم في إمارته لقد قال قائلكم في إمارة أبيه.
فخرج بعد ذلك أسامة إلى رأس فرسخ من المدينة فعسكر هناك فالتحق أبو بكر وعمر وغيرهم بالجيش ورسول الله يلفظ أنفاسه الأخيرة في حجر ابن عمه ووصيه

وحامل رسالته من بعده علي بن أبي طالب (عليه السلام) حتى التحق بركب الصالحين مع
الأنبياء عند المليك العزيز القدير يوم الاثنين أي بعد خروج جيش أسامة بيومين
فرجع أهل العسكر وخالفوا أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) ورجفت المدينة، عند ذلك برزت

---

(١) الإحتجاج للطبرسي: ١٧٣ بتصرف.

الفتن وجسد رسول الله لم يبرد فاشتغل علي بتغسيله (١) واشتغل القوم بأمر الخلافة متناسين النصوص الربانية والنبوية في أمرها حتى استقر الأمر طوعا للبعض وكرها للآخرين على أبي بكر وبعد ذلك أجبر علي وبني هاشم على المبايعة كما فعلت بذلك كتب الفريقين.

ومن هذا السرد يتبين أن حكمة رسول الله (صلى الله عليه وآله) اقتضت أن تخرج بعض العناصر

الذين عرفهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) من قبل من المدينة بجيش أسامة خوفا من الفتنة

وحدوث التراجع عن الرسالة وخطها العام.

* * *

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ١ - ٢ / ٣٩.

الفصل الثالث
مستقبل الرسالة مع الأوصياء (عليهم السلام)
(بحث روائي)

مستقبل الرسالة
كل مصلح عندما يريد أن يخطط لثورة وتغير لا بد أن يخطط تخطيط شامل بحيث يكون قادرا على مواجهة كل التحديات التي تحيط به سواء كانت تحديات سياسية واقتصادية أو عسكرية فلا بد له من ذلك، فهذا يعمل به صغار المصلحين، فكيف بأنبياء الله تعالى، أولئك الذين وقفوا أمام الشعوب، وتحملوا كل المآسي والآلام والتهم والافتراءات التي ما أنزل الله بها من سلطان، تحملوها في سبيل إبقاء الرسالة وتشيد صرحها وإقامة قواعدها بين الناس، تحملوا كل ذلك ليبقى نور الله في الأرض، يمد الأرض بالسماء ويوصل الناس بالله تعالى، فهل من المعقول أن يذهب الأنبياء بدون حامي وكفيل لرسالاتهم التي تحملوا ما تحملوا من أجلها؟ وهل من المعقول أن يذهب الرجل عن بيته ولا يوصي أحدا بعياله؟ وهل من المعقول أن تموت الرسائل السماوية بموت مرسليها؟ وهل من المعقول أن تترك الأمة وحدها لتحدد أهدافها ومنطلقاتها ومآلها؟ ولماذا لم تترك بدون إرسال أنبياء لتحدد ذلك من أول الأمر؟ فالرسالة لا بد لها من حامي وكفيل وجزى الله الصدوق عندما وضع فصلا في اتصال الوصية من آدم إلى محمد (صلى الله عليه وآله) في كتابه كمال الدنيا
وتمام النعمة، فأين الأحاديث النبوية عن الخلافة، ودورهما في المجتمع، هل وضعت وراء الظهر، فهذا كنز العمال يصرح بذلك في الحديث المذكور بأنه " ما كانت نبوة قط إلا وتبعتها خلافة " (١) فإن هذه الأحاديث ردا على أولئك الذين تبجحوا بالكلام على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فهذا وزير خارجية رومانيا السابق يقول " لم
يعين النبي في زمان حياته خلفا له " (٢) وعجيب أمر هؤلاء في خصوص هذه المسألة فإنهم يغمضوا أعينهم عن كل الأحاديث التي وردت في ذلك ولم يلتفتوا لها فيا ترى ما السبب فلنترك السبب إلى المسلمين ليحددوا ذلك بأنفسهم.
خلفاء الأنبياء

---

١ - كنز العمال: ١١ / ٤٧٦ رقم ٣٢٢٤٦.
٢ - نظرة جديدة في سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله): كونستانش جيورجيو تعريب محمد النوبختي ص ٣٤٩.

لو تتبعنا تاريخ الأنبياء (عليهم السلام) نجد أن كل نبي خلف من بعده خلف يدير أمور الأمة
ويرعى شؤنها وإلا كانت الرسائل والبعثات الإلهية مؤقتة بموت الرسل وحاشا لله من اللغوية في ذلك ووردت أحاديث كثيرة في ذلك نذكر منها:
الحديث الأول
فعن أبي الحسن الأول موسى بن جعفر (عليهم السلام) قال: ما ترك الله عز وجل الأرض بغير
إمام قط منذ قبض آدم (عليه السلام) يهتدي به إلى الله وهو الحجة على العباد، من تركة ضل،
ومن لزمه نجا حقا على الله عز وجل (١).
الحديث الثاني
قال رسول لله (صلى الله عليه وآله) إن لله تبارك وتعالى مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي أنا
سيدهم وأفضلهم وأكرمهم على الله ولكل نبي وصي أوصى إليه من الله وأن وصيي علي بن أبي طالب لسيدهم وأفضلهم وأكرمهم على الله سبحانه وتعالى جل ذكره (٢).
فلا بد من إمام يحفظ الرسالة ويرعى حقوق الناس وقادر على حل مشاكلهم.
الحديث الثالث
حدثنا أبي محمد بن الحسن (رضي الله عنه) حدثنا سعد بن عبد الله بن الهيثم بن أبي مسروق

---

١ - كمال الدين: ص ٣٢٠.
٢ - الراوندي، قصص الأنبياء ص ٣٧٢.

النهدي عن محمد بن خالد البرقي عن خلف بن حماد عن أبان بن تغلب قال قال أبو عبد الله (عليه السلام): الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق.

الحديث الرابع

حدثنا أبي ومحمد بن الحسن (رضي الله عنه) قالا حدثنا عبد الله بن جعفر الحميري عن محمد

بن الحسين عن علي بن أسباط عن سليم مولى طربال عن إسحاق ابن عمار قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول أن الأرض لم تخل إلا وفيها عالم أن زاد المسلمين

شيئا ردهم إلى الحق وإن نقصوا شيئا تممه لهم.....

الحديث الخامس

حدثنا محمد بن الحسن (رضي الله عنه) قال: حدثني جعفر بن محمد عن آبائه (عليه السلام) أن النبي

(صلى الله عليه وآله) قال: إن في كل خلف من أمتي عدلا من أهل بيتي ينفي عن هذا الدين تحريف

الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وأن أئمتكم قادتكم إلى الله عز وجل فانظروا بمن تقتدون في دينكم وصلاتكم فهذه الأحاديث وغيرها (١) كافية للجزم بأن لكل نبي خلف من بعده ووصي يرعى شؤون أمته ويتم به رسالته ويحقق هدف الأنبياء في الأرض وهو حفظ الرسالة من حال إلى حال حين يأتي أمر الله تعالى وتطوى الصحف ويحشر الناس إلى ربهم زمرا.

الحديث السادس

قال روى الكشي عن جعفر بن أحمد عن جعفر بن بشير عن أبي سلمة الجمال قال دخل خالد البجلي على أبي عبد الله (عليه السلام) وأنا عنده فقال له جعلت فداك إني أريد أن

---

١ - كمال الدين وتمام النعمة، باب الأرض لا تخلو من حجة ص ٢٢٠.

أصف لك ديني الذي أدين الله به، وقد قال له قبل ذلك: إني أريد أن أسألك فقال له اسألني، فوالله لا تسألني عن شئ إلا حدثتك به على حدة لا أكتمكه - قال: إن أول ما أبدي أني أشهد أن إلا إله إلا الله لا شريك له ليس إله غيره قال: فقال أبو عبد الله (عليه السلام) كذلك ربنا ليس معه إله غيره، ثم قال: وأشهد أن محمدا (صلى الله عليه وآله) عبده ورسوله
قال فقال أبو عبد الله (عليه السلام) كذلك محمد بن عبد الله مقر له بالعبودية ورسوله إلى خلقه
ثم قال وأشهد أن عليا (عليه السلام) كان له من الطاعة المفروضة على العباد مثل ما كان
لمحمد (صلى الله عليه وآله) على الناس فقال: كذلك كان علي (عليه السلام) قال وأشهد أنه كان للحسن بن
علي (عليه السلام) بعد علي من الطاعة الواجبة على الخلق مثلما كان لمحمد وعلي (صلى الله عليه وآله) فقال
(عليه السلام) كذلك كان الحسن (عليه السلام) قال وأشهد أنه كان للحسين (عليه السلام) من الطاعة الواجبة على
جميع الخلق بعد الحسن (عليه السلام) قال كذلك كان للحسين (عليه السلام) قال وأشهد أن علي بن
الحسين (عليه السلام) كان له من الطاعة الواجبة على جميع الخلق كما كان للحسين (عليه السلام) قال
فقال كذلك كان علي بن الحسين (عليه السلام) قال وأشهد أن محمد بن علي (عليه السلام) كان له من
الطاعة الواجبة على الخلق مثل ما كان لعلي بن الحسين (عليه السلام) فقال كذلك كان محمد
بن علي (عليه السلام) قال وأشهد إنك أورثك الله ذلك كله قال فقال أبو عبد الله (عليه السلام) حسبك
أسكت الآن قد قلت حقا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما بعث الله نبيا له عقب وذرية إلا أجرى لآخرهم مثل ما أجرى لأولهم وإنا نحن ذرية محمد (صلى الله عليه وآله) أجرى
لآخرنا مثل ما أجرى لأولنا ونحن على منهاج نبينا لنا مثل ما له من الطاعة الواجبة " (١).

الحديث السابع

ما كانت نبوة قط إلا وتبعها خلافة ولا كانت خلافة قط إلا تبعها ملك ولا كانت صدفة قط إلا كانت قلسا (٢).

---

(١) الكشي عن قاموس الرجال للتستري: ٤ / ١٠٢ ترجمة خالد البجلي رقم ٢٥٤١.
(٢) كنز العمال: ١١ / ٤٧٦ رقم ٣٢٢٤٦.

خبر اتصال الوصية
حدثنا محمد بن الحسين بن أحمد بن الوليد رضي الله عنه قال حدثنا محمد بن الحسن الصفار: وسعيد بن عبد الله وعبد الله بن جعفر الحميري جميعا قالوا حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى، ومحمد بن الحسين بن أبي الخطاب والهيثم بن أبي مسروق النهدي وإبراهيم بن هاشم عن الحسن بن محبوب السراد عن مقاتل بن سليمان بن دوال – دوز عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنا سيد النبيين
ووصي سيد الوصيين وأوصياؤه ساده الأوصياء إن آدم (عليه السلام) سأل الله عز وجل أن
يجعل له وصيا صالحا فأوحى الله عز وجل إليه أني أكرمت الأنبياء بالنبوة ثم اخترت خلقي فجعلت خيارهم الأوصياء فقال آدم (عليه السلام) يا رب فاجعل وصيي خير
الأوصياء فأوحى الله عز وجل إليه يا آدم أوصي إلى شيث وهو هبه الله بن آدم فأوصى آدم إلى شيث وأوصى شيث إلى ابنه شبان وهو ابن نزلة الحوراء (في بعض النسخ هو ابن له من الحوراء) التي أنزلها الله عز وجل على آدم من الجنة فزوجها شيثا وأوصى شبان إلى ابنه مجلث وأوصى مجلث إلى محوق وأوصى محوق إلى غثعيثا وأوصى غثعيثا إلى أخنوخ وهو إدريس النبي (عليه السلام) وأوصى إدريس إلى ناخور
ودفعها ناخور إلى نوح وأوصى نوح إلى سام وأوصى سام إلى عثامر وأوصى عثامر إلى برعثياشا وأوصى برعيثاشا إلى يافث وأوصى يافث إلى بره وأوصى بره إلى جفسيه (في بعض النسخ والفقيه جفسية) وأوصى جفسية إلى عمران ودفعها عمران إلى إبراهيم وأوصى إبراهيم إلى أبنه إسماعيل وأوصى إسماعيل إلى إسحاق وأوصى إسحاق إلى يعقوب وأوصى يعقوب إلى يوسف وأوصى يوسف إلى بثريا وأوصى بثريا إلى شعيب (١)... كمال الدين ص ٢١٢.
حتى وصلت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسلمها بعد ذلك إلى علي ليورثها أوصيائه حتى
يحكم الأرض ووردت الكثير من الأخبار حول اتصال الوصية (٢) بحيث لا يبقى للمريب أي شك في قضية الخلافة وكونها ضرورة حتمية ستوجبها الرسالة بحيث يكون مؤتمنا عليها وعلى إتمامها والسير بالناس إلى طريق الحق، فنحن نعلم أن

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ص ٢١٢.
(٢) كمال الدين وتمام النعمة: ص ٢١٣.

الأنبياء بين ظهراني الأمم وانحرف الناس عنهم فهذا موسى ما أن غاب قليلا حتى عبدوا العجل وهذا عيسى ما أن ذهب عنهم حتى لجأوا إلى التثليث وانتهى الأمر برسول الله جثته لم تبرد حتى لجأوا إلى سقيفة بني ساعد ليتنازعون الملك، إذ لا بد للرسالة من الوحي الحافظ لها من ذلك كله.

* * *